جامعة إب
مجلة الباحث الجامعي

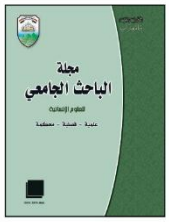

تعريف مفهوم الحداثة في فكر الدكتور محمد عابد الجابري[1]

بندر عبده عبدالله العثماني[1] وماجد بن محمد شباله [2]

[1] باحث دكتوراه بقسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، كلية الآداب، جامعة إب، اليمن

[2] أستاذ العقيدة الإسلامية المشارك ، كلية الآداب، جامعة إب، اليمن

الملخص:

يبرز البحث رؤية الدكتور محمد عابد الجابري للحداثة وتعريفه لمفهومها من خلال رؤيته ومنهجيته الفكرية التي سار عليها في مشروعه الفكري، فيبدأ بتعريفه لمفهوم الحداثة ثم يعرض البحث عناصر هذا التعريف ومدى تميزه عن التعريف الأوروبي لها، كما يتعرض البحث للمفاهيم الأخرى التي أوردها الجابري والتي يرى أنها تتقاطع ومفهوم الحداثة والمتمثلة بمفهومي النهضة والتجديد، ويعرض البحث كذلك النقد الذي وجهه الجابري لتيار الإحياء والتجديد ورواده لتعريفهم التجديد بأنه العودة إلى ما كان عليه السلف ويقدم تعريفا لمفهوم التجديد، ورأى انه لا يمكن أن يتم إلا من داخل تراثنا باستدعائه واسترجاعه استرجاعا معاصرا ، وفي الوقت ذاته بالحفاظ على معاصرته لنفسه ولتأريخيته، حتى نتمكن من تجاوزه مع الاحتفاظ به ويعرض البحث رؤية الجابري في الكيفية التي تلقى المغرب العربي الأفكار الوافدة إليه من المشرق العربي.

الكلمات المفتاحية: الجابري، الحداثة، التجديد، النهضة.

1- المقدمة:

إذا كان التراث يقوم أساسًا على البنى الثقافية للمجتمع التي تحدد واقع ومستقبل المجتمعات الإسلامية والعربية، فعلينا تناول هذه البنى في صيرورتها التاريخية والاجتماعية، فكل تطور اجتماعي هو بالضرورة تطور ثقافي "إن المسألة ليست مسألة إحلال الماضي محل الحاضر أو القديم محل الجديد بل هي أولا وأخيرا إعادة بنية الوعي بالماضي والحاضر والعلاقة بينهما وهي عملية تتطلب التخطيط في آن واحد لثقافة الماضي وثقافة المستقبل: التخطيط لثقافة الماضي معناه إعادة كتابة تاريخها وبالتالي إعادة تأسيسها في وعينا وإعادة بنائها كتراث لنا نحتويه قبل أن يحتوينا، أما التخطيط لثقافة المستقبل فمعناه توفير شروط الحراكية والمشاركة: مواكبة الفكر المعاصر والمشاركة في إغنائه وتوجيهه، وذلك هو معنى المعاصرة"[(2)].

إن الشيء الذي يميز الثقافة الإسلامية والعربية منذ عصر التدوين[(3)] هو عدم تقديم الجديد، ومن ثم إعادة إنتاج القديم، إذن هذا هو الفهم التراثي للتراث، كما يسميه الدكتور محمد عابد الجابري لكن اليوم برزت رؤى وأفكار جديدة أعادت قراءة ما هو قديم ومحاولة توظيفه في قالب جديد يسمى الحداثة: الحداثة كقضية وكإشكالية، تمثل سوء فهم كبير عند كثير من المفكرين، فهناك فهم

سلبي لها على أنها تغريب أو مصطلح دخيل ليس له جذور في الإسلام وحضارته، كما أنها تعني الدخول تحت عباءة الثقافة والحضارة الغربية عند جزء كبير من المفكرين والمثقفين الإسلاميين والعرب المعاصرين.

أهمية البحث وأسباب اختيار الموضوع:

لقد تمثلت أهمية البحث وأسباب اختياره في الآتي:

1. شغف الباحث في حب المعرفة والاطلاع لا سيما أن إشكالية الحداثة من أهم القضايا التي شغلت بال المفكرين في حقل الفكر الإسلامي والعربي المعاصر بصفة عامة والدكتور محمد عابد الجابري بصفة خاصة.
2. الرغبة في التعرف وبعمق على القراءة التي قدمها الدكتور محمد عابد الجابري لمفهوم هذه الإشكالية الفكرية المستجدة، وذلك لإبراز موقفه منها، وتعريفه لها، والوقوف على الأدوات النقدية التي اعتمدت من طرفه في هذه القراءة.
3. ومن الأسباب الموضوعية كون مفهوم الحداثة قد أخذ جدلا واسعا في الفكر الإسلامي المعاصر ما بين التصورات الإيديولوجية المختلفة لا سيما التصور التغريبي الذي يرى أن نقطة الانطلاق صوب المستقبل والنهوض لا تكون إلا باتباع الغرب حذو النعل بالنعل، والتصور السلفي الذي يرى أن نقطة الانطلاق صوب المستقبل والنهوض لا تكون إلا باتباع من سلف، واختلاف المناهج التي تم التعامل بها مع مفهوم الحداثة، الأمر الذي حفز الباحث للخوض في غمار هذا البحث.
4. إن اختيار الباحث للدكتور محمد عابد الجابري يعود إلى كون مشروعه وفكره يمثل طورا جديدا في حقل الفكر الإسلامي والعربي، ومحاولة التعرف على أحد أهم المفكرين العرب المعاصرين، والمكانة المرموقة التي يمتلكها الدكتور محمد عابد الجابري داخل الساحة الفكرية والثقافية، والصدى الذي تركته مختلف كتاباته والقضايا التي ناقشها بحيث تجسدت عنده إشكالية الحداثة بوضوح، ورؤيته العميقة لهذا المفهوم الوافد وموقفه النقدي من المفاهيم الوافدة إلينا من الفكر الغربي ومحاولة تأصيله لحداثة عربية.
5. ظهور أهمية البحث من الناحية التطبيقية والمتمثلة بالسعي إلى معرفة السبيل إلى غرس أعمدة النهضة؛ والنهوض بالأمة من خلال رؤية الدكتور محمد عابد الجابري وقراءته لمفهوم الحداثة والإحاطة بها وتعريفها ومحاولة تأصيلها وعدم عمل قطيعة بينها وبين التراث بل على العكس من ذلك حيث يشكل التراث نقطة الانطلاق للحداثة فهي تنطلق من داخله ولا يمكن أن يتم النهوض إلا بهما معا.

أهداف البحث:

يهدف البحث إلى تحقيق الآتي:

1. معرفة قراءة وتعريفه لها الدكتور محمد عابد الجابري لمفهوم الحداثة من خلال رؤيته ومنهجيته وتعرضه لمفاهيم أخرى يرى أنها تتقاطع ومفهوم الحداثة والمتمثلة بمفهومي النهضة والتجديد، ولفت انتباه الدارسين لأهمية الموضوع، وإبراز مكانته في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر من حيث إنه بالإمكان العمل على تأصيل حداثة خاصة بنا تحافظ على الهوية وتتطلع إلى المستقبل دون الذوبان في أحضان الثقافات الأخرى.
2. محاولة الإسهام في إثراء المكتبة الفكرية بموقف ورؤية الدكتور محمد عابد الجابري من خلال تعريفه لمفهوم الحداثة وكيفية التعامل مع المفاهيم الوافدة ومحاولة تأصيلها والعمل على الانطلاق صوب الحداثة من داخل تراثنا العريق.
3. محاولة غرس وتنمية ثقافة النهوض والتحديث برؤية إسلامية تنطلق من التصور الإسلامي الداعي إلى العيش في تقدم ورقي من دون المساس بالهوية والخصوصية، حيث إننا في أمس الحاجة إلى تأسيس فكر نظري نقدي لا سيما في هذه المرحلة من حياتنا العربية التي تتميز على الصعيد العالمي بمحاولات الهيمنة المختلفة وانتشار العولمة، وعلى

الصعيد القومي نعيش محنة التخلف والتشتت.

منهجية البحث:

اعتمد الباحث في بحثه على المنهج الاستقرائي، والمنهج الوصفي، والمنهج التحليلي.

الدراسات السابقة:

لم يطلع الباحث حسب علمه المتواضع واستقرائه لما كتب حول الدكتور محمد عابد الجابري على دراسة شاملة مستقلة تناولت تعريف إشكالية الحداثة ومفهومها عند الدكتور محمد عابد الجابري على الرغم من كثرة الدراسات التي تناولت مشروع الدكتور محمد عابد الجابري الفكري وتنوعها، والتي تطرقت إلى بعض القضايا والإشكاليات التي تناولها وجهوده في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر، ويمكن الإشارة إلى بعض الدراسات والأبحاث التي تناولت بعض الإشكاليات التي تناولها الدكتور محمد عابد الجابري في مشروعه الفكري على سبيل التمثيل لا الحصر فمن ذلك:

1. "محددات العقل السياسي العربي، عند الدكتور محمد عابد الجابري دراسة تحليلية نقدية" رسالة ماجستير تقدمت بها الطالبة: ضيف شهرزاد، إلى كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية قسم العلوم الاجتماعية، جامعة محمد خيضر بسكرة، الجزائر، في العام الجامعي 2018م -2019م، تناولت فيها الباحثة المحددات السياسية التي أطرت العقل العربي من وجهة نظر الدكتور محمد عابد الجابري وتناولت موضوع الحداثة كونه يمثل الحد الفاصل بين التراث والحضارة الغربية، كونها تطرح لحظة التوتر وتحل ما لم تستطع المشاريع القديمة حله، وأهمها محددات العقل السياسي العربي وكيفية تحديثها وإيجاد حلول للخروج من مخالب الاستبداد السياسي للوصول إلى مجتمعات عربية إصلاحية ترغب في تحقيق حداثة سياسية. وهذا ما تطرقت إليه الأبحاث السابقة بينما تناول بحثنا هذا مفهوم الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري ثم يعرض عناصر هذا التعريف ومدى تميزه عن التعريف الأوروبي للحداثة، ويتعرض البحث للمفاهيم الأخرى التي أوردها الدكتور محمد عابد الجابري والتي يرى أنها تتقاطع ومفهوم الحداثة والمتمثلة بمفهومي النهضة والتجديد.

2. "إشكالية التحديث في مشروع الدكتور محمد عابد الجابري الفكري" بحث نشره الباحث مبارك حامدي بالمجلة الدولية للدراسات الإنسانية والثقافية، والتي صدرت عن جامعة القيروان، تونس، عدد مارس بتأريخ، 2015م، تناول الباحث فيه مشروع الدكتور محمد عابد الجابري تاريخيّا ومفهوميا، وبيّن منزلته ضمن التيار النّقدي العقلاني وبين رؤية الدكتور محمد عابد الجابري لكيفية تحديث الفكر العربي في إطار العلاقة التي يتبناها بين التراث والحداثة ومحدودية مفهومه للعقل والعقلانيّة، وتناقض مواقفه من بعض مقومات الحداثة كالعَلمانية مثلا بسبب مراعاته الواقع الفكري والسياسي العربي.

3. "عقل الحداثة بحث في سبيل نهضة الفكر العربي والإسلامي المعاصر" بحث نشره د. عبدالرحيم خالص باحث متخصص في القانون العام وعلم السياسة المملكة المغربية، في مجلة رؤى استراتيجية، عدد ابريل 2015م، تناول فيه واقع العقل العربي كما حلله وفكك بناءه العديد من المفكرين والفلاسفة العرب والمسلمين وعلى رأسهم الدكتور محمد عابد الجابري من خلال رباعيته الشهيرة عن "نقد العقل العربي"، وتحدث فيها عن الحداثة التي يمكن ان يتبعها العقل، وتساءل عن نوعية الفكر الذي نحتاج إليه لننهض بالعقل الذي نبتغيه ونطمح إليه ؟ وهو المسمى: عقل الحداثة، وبين ان الحداثة التي يطمح الإنسان العربي والمسلم إلى بلوغها اليوم هي حداثة يجب الوعي بمختلف سماتها وتطرق إلى رؤية الدكتور محمد عابد الجابري للحداثة كقيمة يجب ان يقوم بها العقل العربي الناهض. ولم يتطرق الباحث في بحثه لمفهوم الحداثة والمفاهيم التي تتقاطع معه وتميزه عن التعريف الاوروبي.

خطة البحث:

تكون البحث من مدخل ومبحثين كما يلي:

المبحث الأول: تعريف الجابري لمفهوم الحداثة، ونقطة انطلاقها والمفاهيم التي تتقاطع معها

المطلب الأول: تعريف الجابري لمفهوم الحداثة

المطلب الثاني: نقطة انطلاق الحداثة عند الجابري والمفاهيم التي تتقاطع معها

المبحث الثاني: انتقاد الجابري لتيار الإحياء والتجديد وكيفية تلقي المغرب العربي للأفكار الوافدة إليه من المشرق العربي

المطلب الأول: انتقاد الجابري لتيار الإحياء والتجديد بتعريفهم لمفهوم التجديد

المطلب الثاني: تلقي المغرب العربي الأفكار الوافدة من المشرق مجردة من الخلافات.

مدخل:

لقد شهد مفهوم الحداثة جدلا واسعا ونقاشا حادا في أوساط المفكرين العرب لاسيما بعد الصدمة الحضارية التي أفاق عليها العرب بعد حرب 1967م وكانت المناقشة الأهم والأكبر في الساحة الفكرية المعاصرة والتي شغلت المفكرين في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر، و"يعد التراث والحداثة من أهم المفاهيم التي انشغل بها الفكر العربي الحديث والمعاصر، منذ أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، وما يزال النقاش حول التراث مستمرا إلى يومنا هذا"[4]، ولا تزال إلى اليوم هذه المناقشة تدار في أروقة المحافل الفكرية وفي ثنايا كتابات المفكرين العرب والمسلمين، وقد ارجع البعض هذا النزاع إلى شعور الأمة بالفشل الذريع الذي آلت إليه الأوضاع العربية والإسلامية من تخلف فكري ومادي في الآونة الأخيرة، بالإضافة إلى أن هذا الاهتمام نابع من واقع الأمة المعيش: "لحظة تعيش على إيقاع السؤال الأعظم، الذي لا يزال مطروحا بإلحاح في المجال العربي والإسلامي، ألا وهو سؤال النهضة"[5]، وقد اختلفت الآراء والتوجهات الفكرية إزاء هذه الإشكالية كل يرى من موقعه و"اختلفت النظريات والآراء لدى المفكرين والباحثين حول طريقة معالجتهم وفهمهم لهذه القضية، إلا أن هناك ثلاث نظرات عامة حول التراث، منها النظرة التقديسية للتراث، والتي سميت بالاتجاه السلفي، وهي تقوم على إحياء الماضي وبعثه من جديد؛ أما النظرة الثانية فهي ذات طابع تغريبي ليبرالي، ترفض الرجوع إلى التراث؛ بينما كانت هناك نظرة ثالثة توافقية، تقوم على الجمع بين إيجابيات العودة إلى الماضي وإيجابيات الانفتاح على الغرب"[6].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن التراث والحداثة: "إشكالية نظرية يميل استقلالها النسبي عن الواقع نحو المائة في المائة، وهي لا تقبل الحل إلا بتجاوزها"[7].

يندرج الموقف الذي شيد الدكتور محمد عابد الجابري صرحه إزاء الإشكاليات في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر، ضمن المواقف النقدية التي تغوص في عمق الإشكاليات بغية المقاربة والمعالجة لهذه الاشكاليات بنظرة ثاقبة تنطلق من مرجعية محافظة على الهوية والخصوصية وقد شيد الدكتور محمد عابد الجابري صرحه الفكري كما بين في الجزء الأول من نقد العقل العربي بهدف "التحرر من كل ما هو متخشب في إرثنا الثقافي، من أجل فسح المجال للحياة كي تستأنف فينا دورتها، أي من أجل الإعلاء من راية النقد في زمن سيادة التقليد"[8].

ويقترح الدكتور محمد عابد الجابري في مشروعه الفكري تصورًا محددًا لكيفية تجاوز تعريف إشكالية الحداثة والتقابل الحاد بينها وبين التراث، ويبني هذا التصور انطلاقًا من اهتمامه المباشر بقارة التراث، وتفكيره في الأوضاع الثقافية العربية الراهنة، ومن خلال تركيزه على المجال الثقافي بالدرجة الأولى، بحكم قراءاته الفكرية وتخصصه ونظرته العميقة لمكنونات التراث ومحاولة الإسهام في وضع لبنات الخروج من الأزمة التي تعاني منها الأمة[9].

المبحث الأول

تعريف الجابري لمفهوم الحداثة، ونقطة انطلاقها والمفاهيم التي تتقاطع معها

المطلب الأول: تعريف الجابري لمفهوم الحداثة:

يلاحظ حذرا شديدا عند الدكتور محمد عابد الجابري في مقاربته للحداثة، فهو يقول: "فالحداثة في نظرنا لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة، أعني آلية التقدم والحاصل على الصعيد العالمي... فطريق الحداثة عندنا يجب في نظرنا، أن ننطلق من الانتظام النقدي في الثقافة العربية نفسها، وذلك بهدف تحريك التغيير فيها من الداخل، لذلك كانت الحداثة بهذا الاعتبار هي أولا وقبل كل شيء حداثة المنهج وحداثة الرؤية والهدف تحرير تصورنا للتراث من البطالة الإيديولوجية والوجدانية التي تضفي عليه وأصل وعينا طابع العام والمطلق وتنزع عنه طابع النسبية والتاريخية"[10].

إذا الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري لا تعني عمل قطيعة مع التراث بل تنطلق من داخله والقطيعة عنده تكون بعد قراءة التراث ونقده ومن ثمة تجاوز ما لا يصلح لعصرنا منه فيقول في هذا الصدد: "يبدو أنه لا يمكن للعرب أن يحلوا مشاكل المستقبل إلا إذا حلوا المشاكل التي أورثهم إياها الماضي إلا إذا أحصوا أو حاصروا رواسبه في الحاضر، إن ثقل الماضي وهيمنته على الوعي العربي الحديث والمعاصر معطىً واقعي لا بد من الاعتراف به قصد السيطرة عليه، ولا أظن أن هناك من يستطيع أن يجادل في أن الماضي يشكل الوعي العربي الراهن عنصرا محوريا في إشكاليته ومن السذاجة إغفاله أو الطموح إلى تحقيق الحداثة بالقفز عليه، يجب إزالة الضباب عن رؤيتنا للماضي كي نستطيع التخطيط لثقافة المستقبل بوعي صحيح غير شقي"[11]، فيرى الدكتور محمد عابد الجابري انه لا يمكن تحقيق الحداثة بالقفز على الماضي، ولا يمكن التحرر من التراث إلا بكشفنا له، وتفكيكه والرجوع إليه لإزالة الغموض عنه، واستيعابه؛ لتتحقق الحداثة الإسلامية والعربية التي ننشدها، ونستطيع التخطيط السليم بوعي للحاضر والمستقبل.

فمن خلال تعريف الدكتور محمد عابد الجابري للحداثة يلاحظ عدم استبعاده للتراث ولا عمل قطيعة معه فالحداثة عنده ليست الأخذ المطلق بما عند الغرب وعمل قطيعة مع التراث بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى المعاصرْ.

يقول سعيد بن سعيد الذي تحدث عن الدكتور محمد عابد الجابري عندما قدم ورقة إلى ملتقى القاهرة حول التراث وتحديات العصر: "عندما أعلن بوضوح (يقصد الجابري) ربما كانت هي المرة الوحيدة عن ضرورة الربط بين النهضة وبين التراث عندما ذكر أنه في كل الثورات الفكرية والسياسية والاجتماعية الممهد لها دائما يقترن الأمر بربط هذه الثورات بالمعنى الشامل لهذه الكلمة بضرورة الرجوع إلى التراث وقراءة التراث قراءة جديدة من وحي موجهات الحاضر فترى الماضي دائمًا بعيني الحاضر"[12]، فالحداثة والنهضة عند الدكتور محمد عابد الجابري لا يمكن ان تتحقق إلا عندما تتخذ من التراث أساسًا تنطلق منه وربط بين النهضة والتراث ولم يكن يعني بالحداثة القطيعة مع التراث مطلقًا بل على العكس يجب الانطلاق من داخل التراث لذلك فهو يعرف الحداثة بقوله: "فالحداثة في نظرنا، لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة أعني مواكبة التقدم الحاصل على الصعيد العالمي"[13].

وهي عنده تعني حداثة المنهج وحداثة الرؤية وهدفها تحرير التصور للتراث "وتعني أولاً وقبل كل شيء حداثة المنهج وحداثة الرؤية، والهدف: تحرير تصورنا

لـ(التراث)"[14]، بمعنى انه لا يرفض التراث ولا يوجب القطيعة معه بل يريد أن يصل به إلى مستوى افضل، وهو الذي يسمى بالمعاصرة أي التقدم على الصعيد العالمي.

يتضح مما سبق أن التعريف الذي قدمه الدكتور محمد عابد الجابري للحداثة من أنها لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي فهو بهذا يقرر أن الحداثة لا تتطابق مع التعريف الغربي لها الذي يعني القطيعة مع التراث وتجاوز الماضي فالجابري بتعريفه للحداثة يقرر أنها ليست قطيعة مع التراث بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى المعاصرة، كجزء من كم كبير لدلالة المصطلح وفقًا لاختلاف مذاهب ومواقف وإيديولوجيات أصحابها، من هنا يمكن القول بأن الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري ليست هي ثورة تتجه صوب الجديد وإلغاء القديم عنوانها العقل القاطع للصلة بينه وبين الماضي آخذا طريقه نحو التحديث في شتى مجالات الحياة، أو حركة فكرية حديثة وشاملة تمثل رؤية جديدة للعالم، كما عرفها غيره بل الحداثة عنده تنطلق من داخل التراث ولا تعني رفض التراث ولا القطيعة معه ومع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما يسمى بالمعاصرة.

ويذهب الدكتور محمد عابد الجابري في تصوره لمعنى الحداثة "بأنها ليست هناك حداثة مطلقة كلية وعالمية، وإنما هناك حداثات تختلف من وقت لآخر ومن مكان لآخر وبعبارة أخرى، الحداثة ظاهرة تاريخية وهي ككل الظواهر التاريخية مشروطة بظروفها محدودة بحدود جمالية ترسمها الصيرورة على خط التطور"[15].

الأمر الذي يجعل مصطلح الحداثة يتحدد في إطار وضعيته الراهنة، ومدى ارتباطه بمسار التقدم والتحديث، كما يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن الحداثة "رسالة ونزوع من أجل التحديث، تحديث الذهنية وتحديث المعايير العقلية والوجدانية"[16]، يفهم من هذا أن الحداثة تكرس التحول والتغير داخل المجتمع وتتضمن عوامل الإبداع وتتجاوز جميع مظاهر التقليد التي لا تواكب الحاضر.

أراد الدكتور محمد عابد الجابري أن نتجاوز الفهم التراثي للتراث إلى فهم حداثي وإلى رؤية عصرية له "فالحداثة لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه المعاصرة، فالحداثة في الفكر الإسلامي والعربي المعاصر لم ترتفع بعد إلى مستوى المعاصرة، يجب أن تستقي الحداثة أصولها من جذورنا في الماضي، والحداثة العربية لم تصل بعد إلى هذا المستوى فهي تستوحي أطروحاتها من الحداثة الأوروبية التي تتخذها أصولا لها"[17].

فالظفر بالحداثة التي ينشدها الدكتور محمد عابد الجابري، وجب أن تكون بالعودة إلى التراث والاهتمام به، والتعامل معه لكي نستوعبه ونستوعب الحداثة في الوقت نفسه، فالحداثة عنده هي رسالة من اجل تحديث الذهنية والعقل ومناهج التفكير والوجدان[18].

المطلب الثاني: نقطة انطلاق الحداثة عند الجابري والمفاهيم التي تتقاطع معها:

إن الحداثة التي ينشدها الدكتور محمد عابد الجابري ليست مجرد شعار، أو دعوة يبشر بها لمواجهة الواقع المتأخر الذي يقف في ذيل قائمة الأمم والحضارات المعاصرة، أو مواجهة التيارات التي تتكئ على التقليد، أو إحداث قطيعة جذرية مع التراث والماضي، وتصفية الحساب معه، كما أنها ليست تعبيرًا عن رأي فردي متقوقع على ذاته؛ بل الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري تنطلق من روح التراث وترتبط بروح النقد والإبداع داخل الثقافة الإسلامية والعربية، وهي تحديث الذهنية والعقلانية والوجدانية فهي "رسالة نزوع من أجل التحديث: تحديث الذهنية، تحديث المعايير العقلية والوجدانية، وعندما تكون الثقافة السائدة ثقافة تراثية فإن خطاب الحداثة فيها يجب أن يتجه أولاً وقبل

كل شيء إلى التراث بهدف إعادة قراءته وتقديم رؤية عصرية عنه، واتجاه الحداثة بخطابها، بمنهجيتها ورؤاها، إلى التراث هو، في هذه الحالة، اتجاه بالخطاب الحداثي إلى القطاع الأوسع من المثقفين والمتعلمين، بل إلى عموم الشعب، وبذلك تؤدي رسالتها، أما التقوقع في فردية نرجسية فإنه يؤدي حتمًا إلى غربة انتحارية، إلى التهميش الذاتي"[19].

إذا يمكن القول إن التحديث بالنسبة للجابري لا يتم إلا عبر التراث، فهو النافذة التي تنفذ منه ومن خلاله الحداثة وذلك بإدخاله في مختلف القضايا، فقد رأى الدكتور محمد عابد الجابري في فلسفة ابن رشد الأساس والمنطلق لنهضتنا المعاصرة، ذلك أن ابن رشد قام بالفصل بين الحكمة والشريعة بالإضافة إلى عقلانيته، فوجد الدكتور محمد عابد الجابري في فكر ابن رشد المنطلق للنهضة، أي ربط نهضتنا المعاصرة بجذورها الإسلامية فقد دعا ابن رشد إلى القطيعة بين الدين والفلسفة وقدّم البديل حينما "دعا فيه إلى فهم الدين داخل الدين وبواسطة معطياته، وفهم الفلسفة داخل الفلسفة وبواسطة مقدّماتها ومقاصدها"[20]، ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أنّ ما قدّمه ابن رشد من بديل في هذه القضية يمكن لنا أن نجعل منه منهجًا في عصرنا الحاضر لبناء العلاقة بين تراثنا والفكر العالمي بحيث نحقّق الأصالة والمعاصرة معًا[21].

إذًا اذا اردنا الدخول في حداثة إسلامية وعربية بحسب الدكتور محمد عابد الجابري لا بد ان ننطلق من داخل التراث وعندما تكون الثقافة السائدة ثقافة تراثية يجب ان يكون خطاب الحداثة موجه أولاً وقبل كل شيء إلى التراث بهدف إعادة قراءته وتقديم رؤية عصرية عنه، فقد اتخذ الدكتور محمد عابد الجابري موقفًا معاصرًا في قراءته وتعريفه للحداثة ورؤيته للتراث والحداثة، وكان مشروعه الفكري إنموذجًا حداثيًا عقلانيًا، يرمي إلى انتشال الأمة من هذا الركود والانحطاط الذي أمات كل شيء يمكن ان يكون سلمًا للتقدم والنهوض، والتوجه بخطىً حضارية صوب المستقبل.

مفاهيم تتقاطع ومفهوم الحداثة لدى الجابري:

هناك مفاهيم أخرى عند الدكتور محمد عابد الجابري تحمل نفس معنى الحداثة لديه من مثل مفهومي النهضة والتجديد.

حيث يقول في ذلك: "الحداثة عندنا، كما تتحدد في إطار وضعيتنا الراهنة هي النهضة والأنوار وتجاوزهما معًا، والعمود الفقري الذي يجب أن تنتظم فيه جميع مظاهرها هو العقلانية الديمقراطية، والعقلانية والديموقراطية ليستا بضاعة تستورد بل هما ممارسة حسب قواعد، ونحن نعتقد أنه مالم نمارس العقلانية في تراثنا وما لم نفضح أصول الاستبداد ومظاهره في هذا التراث فإننا لن ننجح في تأسيس حداثة خاصة بنا، حداثة ننخرط بها ومن خلالها في الحداثة المعاصرة العالمية كفاعلين وليس مجرد منفعلين"[22]، فعند الدكتور محمد عابد الجابري مفهوم الحداثة ومفهوم النهضة يحملان نفس المعنى، "والحداثة رسالة ونزوع من اجل التحديث، تحديث الذهنية، تحديث المعايير العقلية والوجدانية "[23]، والنهضة تعني "التعديل والتغير، مادامت معلوماتنا عن تراثنا ناقصة في أكثر من مجال"[24]، إذا فالنهضة عند الدكتور محمد عابد الجابري تعني الحداثة، وكذلك التجديد حيث يؤكد انه "لا نهوض ولا تطور إلا بالمراجعة والتجديد، مراجعة القديم بالمنهج الحديث من أجل استيعاب حركة التاريخ، وذلك بالاستفادة من الأصالة ومواكبة المعاصرة، فالأصالة والمعاصرة لا ينفصلان، ومن ينشد الأصالة بدون المعاصرة كمن ينشد المعاصرة بدون الأصالة، إذ الأول مقلد والثاني متبع، فالأول يقلد المتقدمين من السلف والثاني يتبع المتأخرين من الخلف"[25].

إذًا فالدخول بالحداثة يحتِّم انه لا بد من المراجعة مراجعة القديم بمنهج حديث والاستفادة من الأصالة وعدم الفصل بين الأصالة والمعاصرة.

وقد تطرق الدكتور محمد عابد الجابري لمفهوم التجديد وهو عنده يحمل نفس معنى التحديث والحداثة حيث يقول: "أن التجديد لا يمكن أن يتم إلا من داخل تراثنا باستدعائه واسترجاعه استرجاعًا معاصرًا لنا، وفي الوقت ذاته بالحفاظ على معاصرته لنفسه ولتاريخيته، حتى نتمكن من تجاوزه مع الاحتفاظ به، وهذا هو التجاوز العلمي الجدلي"[26]، ويقول عن الحداثة " فالحداثة في نظرنا لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل مع التراث إلى مستوى ما نسميه بالمعاصرة"[27].

والتجديد الحقيقي عنده يتمثل بإيجاد حلول علمية لما يطرح علينا من قضايا "التجديد الحقيقي المطلوب هو إيجاد الحلول العلمية لما يطرحه علينا من قضايا لم يعرفها ماضيها"[28].

ويشترط الدكتور محمد عابد الجابري في تجديد التراث ان يكون من الداخل لا من الخارج وضرب مثل بالدول الاوروبية التي استرجعت ابن رشد بعروبته وحاولت ان تقرأه من ثقافتها هي لا من الثقافة التي أتى منها " يشترط في عملية تجديد التراث ان تكون من داخله باعتماد استراتيجية إتيان البيوت من أبوابها، ويرفض بناء حضارة بتراث اخر ومفاهيم أخرى ويضرب المثل بالدول الغربية التي استرجعت ابن رشد لا كما نعرفه نحن العرب، بل كما صنعوه هم"[29].

وعند الدكتور محمد عابد الجابري "تجديد الدين لا يعني الإتيان فيه بجديد لم يكن فيه، فذلك هو البدعة بعينها؛ بل يعني الرجوع به إلى جدَّته الأولى، أو إعادة الجدَّة له، والجدَّة ضد البلى، فكأن الدين يبلى ويتقادم بما يتراكم عليه في سلوك المسلمين فيأتي المجدد ليقطع، جد = قطع، هذه التراكمات ويشذب السلوك ويعود بالدين إلى حالته الجديدة"[30]، فهو بهذا يتفق مع رؤية التوجه السلفي المستنير المتمثل بتيار الإحياء والتجديد من ان التجديد ليس الإتيان بجديد بالدين وإنما إزالة ما علق وتراكم في سلوك المسلمين مما ليس من الدين وإعادته إلى ما كان عليه في حالته الجديدة.

المبحث الثاني

انتقاد الجابري لتيار الإحياء والتجديد وكيفية تلقي المغرب العربي للأفكار الوافدة إليه من المشرق العربي

المطلب الأول: انتقاد الجابري لتيار الإحياء والتجديد بتعريفهم لمفهوم التجديد:

وفي معرض الحديث عن التجديد يوجه الدكتور محمد عابد الجابري انتقاده لتيار الإحياء والتجديد في تعريفهم لمفهوم التجديد وانه يعني الرجوع إلى سيرة السلف الصالح، ويسميهم بالسلفية الحديثة وانها لم تحقق نجاحًا في المجال السياسي وبالتالي المجال الاقتصادي والاجتماعي، وقد كان النجاح حليفهم في الدين واللغة، فالتجديد في الدين لا يعني إضافة أشياء جديدة عليه، ولا تطوير أو تحديث تعاليمه، فالدين بالتعريف وحي إلهي لا يخضع للتطوير والتجديد بهذا المعنى، وإنما الذي يتطور ويتجدد هو فهم الناس له، وذلك يكون بالرجوع إلى ينابيعه الأولى ومحاولة بناء فهم جديد يساير العصر والتطور، ولنزول القرآن باللغة العربية كان التجديد في الدين مرتبطًا بالتجديد في اللغة، ومن هنا نفهم ربط محمد عبده بين التجديد في الدين وإصلاح أساليب اللغة العربية[31].

وأما في مجال السياسة، ومجال الاقتصاد والاجتماع فقد فشل محمد عبده في تحقيق أي إصلاح يذكر للسبب نفسه؛ لأن التجديد في السياسة بالرجوع (إلى سيرة السلف الصالح) سوف يحصر حول الخليفة عمر الذي حقق التوازن بين الطاعة والعدل، فكان النموذج الفريد للمستبد العادل، وكأن الإصلاح السياسي والاجتماعي والاقتصادي عند

محمد عبده يتلخص في عبارة واحدة هي إنما ينهض بالشرق مستبد عادل فالمسألة السياسية كلها تتلخص في الطاعة في مقابل العدل، وهذا التصور هو ما تردد في الأدبيات السياسية الإسلامية الذي يجد مرجعيته في ما يروى عن ملوك الفرس وبقيت منذ ظهورها مع ابن المقفع إلى يومنا هذا[32].

ويخلص الدكتور محمد عابد الجابري إلى أن التجديد في الدين بناءً على الرجوع إلى سيرة السلف الصالح ممكن، وقد حدث مرات في التاريخ الإسلامي، أما في السياسة وما يرتبط بها من اجتماع واقتصاد والتي لم يشرع فيها الإسلام فقد تُركت للاجتهاد، معنى هذا أن التجديد في الدين لا يؤدي حتمًا إلى التجديد في السياسة، وبالتالي ليس للموقف التراثي إلى الآن منفذًا إلى التحديث السياسي والاقتصادي والاجتماعي يرفعه إلى مستوى العصر، ما لم ينجز مشروعه السياسي، فالعيب في طريقة التعامل مع التراث وتوظيفه وليس فيه نفسه[33].

ويقول أيضا ان معنى التجديد الذي قال به الفقهاء بأنه كسر للبدعة والعودة بالمسلمين إلى سيرة السلف، فينبغي ألا نقف عند حدود هذا المعنى تقليدًا لهم "والتجديد بالنسبة للرؤية الإسلامية جزء من الحياة نفسها بدليل الحديث النبوي المشهور (إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها)[34]، وبما أن الإسلام لا يفصل بين الدين والدنيا، بل بالعكس من ذلك يربط صلاح أمور الدين بصلاح أمور الدنيا، فإن تجديد أمور الدين يعني في ذات الوقت تجديد أمور الدنيا، وبما أن أمور الدنيا تتغير من زمان إلى آخر، فإن مفهوم التجديد ومتطلباته لا بد أن يتغير حسب الظروف والأعصار، وهكذا فإذا كان بعض الفقهاء القدامى قد فسروا التجديد على أنه كسر للبدعة والعودة بالمسلمين إلى سيرة السلف الصالح، فينبغي ألا نقف عند حدود هذا المعنى تقليدًا لهم وتقليدًا بالتعريف الذي أعطوه للبدعة، والذي استمدوه من ظروف عصرهم ومعطيات واقعهم"[35].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان ما يحتاج إليه المسلمون اليوم هو التجديد بعقلانية ووعي وليس مجرد الصحوة فقط "والحق أن ما يحتاج إليه المسلمون اليوم هو التجديد وليس مجرد الصحوة، إن التحديات التي تواجه العالم العربي والعالم الإسلامي تتطلب ليس فقط رد الفعل بل الفعل، والفعل في العصر الحاضر هو أولاً وأخيرًا فعل العقل... لأن العصر يقوم كل شيء فيه على الفعل العقلاني"[36].

ففي معرض نقد الدكتور محمد عابد الجابري لتيار الإحياء والتجديد والذي يسميه بالسلفية الحديثة، يبدي جانبًا من الإنصاف لهذا التيار فيقول: "ولا يغرب عنا، أن السلفية الحديثة نجحت في تحرير الفكر الديني من التقليد، وفتح باب الاجتهاد، وإعادة الاعتبار للعقل، وتحقيق نوع من الإخاء بين العلم والإيمان، وأسهمت في تطوير اللغة العربية، وتحريرها من أساليب عصور الانحطاط...، ولكن الدعوة السلفية لم تنجح في حل المعادلة التي استعصت منذ أواخر خلافة عثمان التي طرفاها: ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب من جهة، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة من جهة أخرى"[37]، أي أن السلفية الحديثة لم تحقق نجاحًا في المجال السياسي وبالتالي المجال الاقتصادي والاجتماعي، لقد كان النجاح حليفهم في الدين واللغة كما اتضح سابقًا.

وسبب هذا الفقر في الفكر السياسي عند تيار الإحياء والتجديد بحسب الدكتور محمد عابد الجابري على استنارته؛ أن الإسلام ترك المسألة السياسية للاجتهاد البشري، فالرجوع فيها إلى التراث منهج غير مستقيم، ليست هناك نصوص مشرِّعة للسياسة في الإسلام، ولذلك اختلفت سيرة السلف الصالح في المسألة السياسية باختلاف الظروف وتباين شخصية الحاكم، فسيرة أبي بكر غير سيرة

عمر غيرها سيرة عثمان – رغم ما اشترط عليه من سار على سنة الشيخين – وغير سيرة علي ؛ لقد اختلفت سيرهم جميعًا باختلاف الظروف، وبتطور المجتمع والدولة[38].

ويقول الدكتور محمد عابد الجابري: "ولا يغرب عنا، أن هناك نصوصًا إسلامية في القرآن والحديث، ما يمكن اعتباره بحق بمثابة الخلفية الإسلامية في المجال السياسي كالدعوة إلى الشورى والنصفة والعدل والبر والإحسان... الخ، وقد حملت هذه النصوص حتى زمن السلف الصالح على الندب وليس على الوجوب، ولذلك بقيت السياسة في التاريخ الإسلامي بلغة ابن خلدون بالسياسة التي يحمل عليها أهل الاجتماع والتي هي لسائر الملوك في العالم من مسلم وكافر مع هذا الفارق، وهو أن ملوك المسلمين – يقول ابن خلدون: – يجرون منها على ما تقتضيه الشريعة الإسلامية بحسب جهدهم، ولذلك كانت السياسة في الإسلام: قوانينها، إذن مجتمعة من أحكام شرعية وآداب خلقية وقوانين في الاجتماع طبيعية، وأشياء من مراعاة الشوكة والعصبية ضرورية، والاقتداء فيها بالشرع أولاً، ثم بالحكام في آدابهم والملوك في سيرهم"[39].

فيرى الدكتور محمد عابد الجابري أنه "بقي الوضع وما زال، كما كان عليه مع محمد عبده، ... لا يزال الإسلام السياسي السني يؤجل مشروعه السياسي ؛ لقد اعتذر حسن البنا عن ذلك ؛ معطيًا الأولوية للاتفاق على الأهداف، والبعد عن التفاصيل التي تكون مثار خلاف، وهذا الموقف شاهد على أن حسن البناء كان يدرك أن المسألة السياسية لا يضبطها نص مرجعي يمكن أن يجمع الناس ويكون موضوع اجتهادهم"[40].

فالتوجه السلفي تمحور حول قضية أساسية واحدة، هي توظيف الدين في التعبئة والتجديد من أجل النهوض، والدفاع عن النفس أمام التهديدات الاستعمارية الغربية، وبحسب الجابري أن الطريقة الخاطئة في توظيف التراث كانت من أسباب فشل النهضة، فبدلاً من أن يكون التراث نقطة الانطلاق صوب النهضة شأنه في ذلك شأن أي تراث، وقعنا في إشكالية الأصالة والمعاصرة التي تعني وجود نوع من التوتر والقلق والالتباس في علاقة الماضي والمستقبل بين التراث والفكر المعاصر، وبين الأنا والآخر، والنتيجة تشويش وتعتيم الرؤية النهضوية[41].

وقد نادى اغلب المفكرين والمثقفين بإبراز الوجوه المشرقة من تراثنا، وبالعودة إلى سيرة السلف الصالح أو استلهام العصور الزاهرة من تاريخنا، يؤخذ على هذه النداءات أنها بقيت وما زالت تتحرك في أفق برغماتي محض، والغالب سطحي إلى درجة منفرة، يستثنى من ذلك محمد عبده الذي اتجه بعد افتراقه عن الأفغاني اتجاهًا إصلاحيًا مناهضاً للبدع التي علقت بالدين، وهو اتجاه لم يتجذر ويؤسس ميلادًا جديدًا إلا في المغرب العربي.

فيقول الدكتور محمد عابد الجابري في ذلك "صحيح أن معظم رواد النهضة في القرن الماضي ودعاتها في هذا القرن نادوا باختلاف اتجاهاتهم – بإحياء ما يعبر عنه بالوجوه المشرقة من تراثنا: بالعودة إلى سيرة السلف الصالح أو باستلهام العصور الزاهرة من تاريخنا، غير أن هذه النداءات بقيت وما زالت تتحرك في أفق برغماتي محض، وفي الغالب سطحي إلى درجة منفرة، وهكذا باستثناء محمد عبده الذي اتجه بعد افتراقه مع الأفغاني اتجاهًا إصلاحيًا مناهضًا للبدع التي انتشرت في الدين كالاعتقاد في الأوليا والأضرحة... الخ، وهو اتجاه لم تتح له فرصة التجذر وتأسيس ميلاد جديد إلا في المغرب...، أقول باستثناء محاولة محمد عبده، فإن جل التيارات الفكرية الأخرى التي ارتبطت بالتراث نوعًا من الارتباط قد فعلت ذلك لا بهدف إعادة تأسيس الوعي بالنهضة بوصفها ميلادًا جديدًا وبناء مرجعيات ثقافية لقضاياها وطموحاتها، بل إن الرجوع إلى التراث، الديني منه أو الأدبي، وإلى العصور الزاهرة من تاريخنا، إنما كان بهدف طلب السند لقضية ظرفية معاصرة"[42].

اذًا فقد استثنى الدكتور محمد عابد الجابري من ذلك الإمام محمد عبده والذي اتجه بعد افتراقه عن الأفغاني اتجاهًا إصلاحيًا، ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان طريقة التعامل مع التراث لم تكن بهدف إعادة تأسيس الوعي بالنهضة وإنما كان بهدف طلب المساندة إزاء قضية ظرفية معاصرة هي النهوض لمواجهة الاستعمار الاجنبي "وهكذا... جعلوا الهدف الأول من النهضة هو النهوض لمقاومة الهجوم الأوروبي، العسكري منه والسياسي والاقتصادي والثقافي، وقد التجؤوا إلى التراث بوصفه وسيلة تعبئة وتجنيد، ولذلك اقتصروا على مخاطبة وجدان الناس وتحريك المخيال الاجتماعي بما كانوا يقدمونه من تأكيدات تبعث الثقة في النفس وتحمل على الأمل في المستقل، هذا بالنسبة لمن نادوا بإحياء ما يعبر عنه بالوجوه المشرقة من تراثنا بالعودة إلى سيرة السلف الصالح أو باستلهام العصور الزاهرة من تاريخنا.

"أما الذين فهموا النهضة على أنها اقتباس لأسس الحداثة ومظاهرها من الغرب فقد لجؤوا إلى ما اعتبروه الوجوه المشرقة من التراث الفكري والحضاري لاتخاذها جسرًا وغطاءً لتمرير تلك المظاهر الحداثية"[43].

فمن اعتبر النهضة هي مقاومة الاستعمار الاوروبي اتخذ من التراث مجهودًا حربيًا ووسيلةً تعبئة وتجييش، ومن اعتبر النهضة استنبات للحداثة الغربية في البيئة الإسلامية والعربية اتخذ مما اعتبره الوجوه المشرقة من تراثنا الفكري والحضاري مبررًا لصد تلك المظاهر الحداثية "دون أن يعملوا على تأصيل هذه ولا الكشف عن أصول تلك، فظلت العملية هنا أيضًا تتحرك على مستوى التوظيف البرغماتي الظرفي لا غير هذا السلوك البرغماتي في توظيف التراث العربي الإسلامي، الديني منه والحضاري، في مشروع النهضة العربية منذ تبلوره في القرن الماضي إلى اليوم، كانت له دائمًا آثار سلبية جدًا على عملية النهضة ومشروعها المستقبلي، ومن الضروري اليوم، والحاجة تدعو إلى إعادة تأسيس مشروع النهضة العربية، العمل على تعرية هذا الطابع البرغماتي والكشف عن سلبياته ومخاطره"[44].

ويذهب الدكتور محمد عابد الجابري إلى ان التيار السلفي في الفكر الحديث والمعاصر الذي شغل أكثر من غيره بالتراث وإحيائه وتجديده واستثماره، في إطار قراءة يصفها بأنها أيديولوجية، أساسها: "إسقاط صورة المستقبل المنشود، المستقبل الأيديولوجي على الماضي، ثم البرهنة انطلاقًا من عملية الإسقاط هذه على أن ما تم في الماضي يمكن تحقيقه في المستقبل"[45].

وهو يرى أن هذا الاتجاه بدأ بحركة دينية إصلاحية متفتحة مع الأفغاني، ومحمد عبده، حركة تنادي بالتجديد وترك التقليد، وهو إلغاء كل التراث المعرفي المنحدر إلينا من عصر الانحطاط، والحذر في الوقت نفسه من الوقوع فريسة للفكر الغربي، أما التجديد فيعني بناء فهم جديد للدين عقيدة وشريعة انطلاقًا من الأصول مباشرة، وجعله معاصرًا لنا وأساسًا لنهضتنا، وهي بهذا سلفية دينية رفعت شعار الأصالة والتمسك بالجذور والحفاظ على الهوية[46].

فيرى الدكتور محمد عابد الجابري في دعوة الافغاني وعبده أنها عملت على "مسلكية... توظيف برغماتي للدين لصالح السياسة على طريقة الأفغاني ومن اللجوء إلى المهادنة السياسية أملاً في إزالة العوائق أمام الدعوة على طريقة محمد عبده"[47].

فبعد ما اورد الدكتور محمد عابد الجابري مقالةً كتبها الأفغاني بقلم محمد عبده ونشرت عام 1884م، كانت فحواها تتحدث عن الوسيلة الناجعة في علاج الأمة وإنهاضها، وأن سبب الضعف والمرض هما انحراف الأمة عن أصول دينها الذي به نهضت في الماضي وبفضله سادت على الأمم فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان عليه في بدايته وإرشاد العامة بمواعظه الوافية بتطهير القلوب وتهذيب الأخلاق

وإيقاد نار الغيرة وجمع الكلمة وبيع الأرواح لشرف الأمة[48].

فيقول الدكتور محمد عابد الجابري في معرض تعليقه على المقالة بأنها: "تعبر تعبيرًا كاملاً عن محتوى السلفية الحديثة، سلفية الأفغاني وعبده... مضمون هذه المقالة سواءً على مستوى التحليل أو على مستوى القبول والرفض مضمون ما زال حيًا بين ظهرانيتنا كخطاب وكبرنامج واستراتيجيا، إن منطق المقالة منطق برغماتي واضح: إنها تطلب ما ينفع ويؤتي ثماره في أسرع وقت، إن النهضة هنا تلخص في قضية واحدة هي النهوض لمقاومة خطر الاستعمار الأوروبي، وبما أن هذا الخطر محدق على الأبواب، بل هو مخيم في بعض جنبات الدار، فإن الوقت لا يرحم، وليس هناك من وسيلة أقرب ولا أسهل من توظيف الرأسمالية الموجودْ، الحاضر في القلوب الدين، للتعبئة والتجنيد والنهوض لمقاومة الغازي المستعمر"[49]، فلخصت المقالة التعبير الكامل عن محتوى سلفية الأفغاني وعبده المستنيرة، وبأن منطقها منطق برجماتي بحسب الدكتور محمد عابد الجابري يتلخص في ان النهضة هي النهوض لمقاومة خطر الاستعمار الاوروبي آنذاك فيجب التعبئة والتجنيد لمقاومته.

إنه وعلى رغم انتقاد توجه الافغاني وعبده من قبل الدكتور محمد عابد الجابري إلا انه يشيد بالدور الذي قدماه في النهوض والوقوف في وجه الاستعمار فيقول: " تلك قضية جمال الدين الأفغاني داعية الشرق إلى النهوض والوقوف في وجه الاستعمار الانكليزي وهي قضية نبيلة بدون شك، تحمل معها معقوليتها ومشروعيتها، فهي من هذه الناحية ليست موضوعًا لا للمراجعة ولا للنقد"[50].

وإنما وجه الدكتور محمد عابد الجابري سهام نقده صوب الخطاب الذي استعملوه والذي بدوره ليس خطاب إثبات وحسب بل خطاب جدل وسجال، ظل يهيمن على الفكر السلفي الحديث، وبقي يتردد كما هو إلى اليوم، ومضمونه رفض أسس الحداثة الاوروبية واتهام دعاة الاخذ بها بالغفلة والعمالة بل والخيانة، وما يقدمه كبديل عن هذا الخطاب ينحصر في مجرد الدعوة إلى الأخذ بالإسلام كما كان عليه في أول أمره، وتعتبر هذه ثلاثة مواقف تلخص مشروع الأفغاني الذي يهيمن على الفكر السلفي الحديث، بحسب الدكتور محمد عابد الجابري لذلك يقول: "غير أن الخطاب الذي استعملته هذه القضية ليس خطاب إثبات وحسب، بل هو خطاب جدل وسجال أيضًا:

1. إنه يرفض أسس الحداثة الأوروبية.
2. ويتهم دعاة الأخذ بها بالغفلة والعمالة بل وبـ "الخيانة".
3. أما ما يقدمه هذا الخطاب كبديل إيجابي فهو مجرد الدعوة إلى الأخذ بالإسلام كما كان عليه في أول أمره"[51].

ومن وجهة نظر الباحث من أن القول بأن مشروع الأفغاني ومحمد عبده، رفض أسس الحداثة الأوروبية ليس على سبيل الإطلاق، وبالتالي فقد فصَّل وفرَّق الأفغاني في قضية الأخذ والترك من الحداثة الغربية بين علوم الحداثة التقنية والتكنولوجية وبين الفكر الحداثي الأخلاقي والقيمي، فقد رفض الفكر الحداثي الذي يريد استئصال القيم والأخلاق والهوية والخصوصية للأمة ويحل محلها أما علوم الحداثة التقنية والتكنولوجية فقد دعا الأفغاني وعبده وتلامذتهما إلى الدعوة والاستفادة من الحداثة الأوروبية وعدم تفويت هذا الجانب.

ويؤكد الدكتورة محمد عمارة الذي يُعتبر مشروعه الفكري امتدادًا لتيار الإحياء والتجديد؛ على أن هناك توجهات في ثقافتنا تقف "من دعوة الأفغاني إلى تأسيس التمدن الحديث على أسس إسلامية موقف الرفض أو العداء"[52]، وذلك " لأنه يرفض فكر الحضارة الأوربية وقيمها على حين يقبل علمها وتطبيقات هذا العلم التكنولوجية"[53].

ويرى عمارة أن هذه التهمة هي الجوهر العبقري في دعوة الأفغاني إلى الاستفادة من علوم الغرب وتطبيقاتها مع

الحفاظ على ما تتميز به حضارتنا وشخصيتنا القومية من فكر وقيم[54]، وهذا الموقف الواعي – لدى الأفغاني – جاء بين موقفين كلاهما خاطئ؛ وهما:

موقف أهل الجمود: الذين عكفوا على التخلف الموروث رافضين التفاعل مع الحضارة الغربية بإطلاق.

موقف دعاة التغريب: الذين أسلموا عقلهم كله للحضارة الأوربية، كأنما هم لقطاء لا ميراث حضاري، ولا سمات حضارية تستوجب أن يكون التفاعل والأخذ والعطاء من موقف الراشد وموقع الاستقلال[55].

فعمارة يرى ان الأفغاني لم يقف من الحداثة الغربية وقوف المقلد المتأثر أو وقوف الرافض المتعصب، بل دعا إلى الاستفادة من علومها وعدم السماح للفكر الذي جاءت به ان يتسلل إلى ثقافتنا ليطمس ويقضي على الهوية والخصوصية ويحل محلها.

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن الأفغاني تعامل مع الخطاب النهضوي بأنه خطاب علاجي يتبنى لغة الطبيب في تشخيصه للمرض في البحث عن أسباب المرض وتحديده والبحث عن علاج لكنه اختار دواءً واحدا معينا ورفض الباقي وعاب عليه ربطه الدين بالسياسة ربطًا برغماتيًا والذي بدوره أدى إلى تحول السياسة إلى عقيدة فيقول في ذلك: "ولكن خطاب جمال الدين الأفغاني كان يتجاوز المجال السياسي الظرفي بكثير، فهو خطاب نهضوي، علاجي، يتبنى لغة الطبيب: يفحص الأمة فيجدها مريضة ويبحث عن أسباب المرض ويحددها تحديدًا، ثم يبحث عن أنواع العلاج التي يحتمل أن تفيد في حالتها فيختار دواءً واحدًا معينًا ويرفض الباقي، وبقطع النظر عن أن النهضة في هذا الخطاب لا تعني ميلادًا جديدًا بل تعني النهوض فقط، نهوض المريض من المرض الذي أقعده وجعله في حالة عجز، وبالتالي شفاؤه ورجوعه إلى حال صحته السابقة، ومع ما في هذه النظرة البيولوجية للأمة وأحوالها من عيوب وبعد عن الصواب، فإن ما يجب أن يشد اهتمامنا في خطاب جمال الدين الأفغاني هو أن ربطه الدين بالسياسة ربطًا برغماتيًا بالصورة التي عرضناها في الفقرة السابقة قد أدى إلى نوع من التعالي بالسياسة تحولت معه هذه الأخيرة إلى عقيدة"[56].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان العلاج الذي اقترحه الأفغاني والمتضمن رجوع الأمة إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان عليه في بدايته ليس محل طعن ولا نقد في حالة اعتبرت النهضة بمعنى الولادة الجديدة كمشروع للتجديد والتحديث داخل الإسلام وفق ما تقتضيه متطلبات العصر وتحدياته الحضارية العامة وليس فقط مجرد قعود بعد نهوض "إن العلاج الذي اقترحه جمال الدين وهو رجوع الأمة إلى قواعد دينها والأخذ بأحكامه على ما كان عليه في بدايته... ليس موضوع طعن ولا جدال إذا أُخذ كجزء من مشروع للنهضة بمعنى الولادة الجديدة، مشروع للتجديد والتحديث داخل الإسلام وتحت رايته على وفق ما تقتضيه متطلبات العصر وتحدياته الحضارية العامة، إن النهضة بمعنى الولادة الجديدة وليس فقط بمعنى النهوض بعد قعود"[57].

وحين يوجد "مشروع للنهضة بمعنى الولادة الجديدة، مشروع للتجديد والتحديث داخل الإسلام وتحت رايته وفق ما تقتضيه متطلبات العصر وتحدياته الحضارية العامة، إن النهضة بمعنى الولادة الجديدة، وليس فقط بمعنى النهوض بعد قعود، لا بد أن تنطلق من الانتظام في التراث"[58]، فمشروع النهضة بحسب الدكتور محمد عابد الجابري إذا كان بمعنى الولادة الجديدة ومشروع تجديد وتحديث في ظل الإسلام وتحت رايته على وفق مستجدات ومتطلبات العصر الحاضر وتحدياته الحضارية وليست مقتصرة على النهوض بعد قعود فلا بد من الانطلاق و الانتظام في التراث وهذا الموقف هو ذاته الذي عبر عنه الدكتور محمد عابد الجابري في تأصيله للحداث الإسلامية والعربية والتي لا تعني القطيعة مع التراث بل الانطلاق من

داخله، فالدكتور محمد عابد الجابري ينظر بشمولية لمشروع النهضة وليست نظرته سطحية لا تكشف عن مكنونات الانطلاق ولا تقتصر على جانب واحد مع اهمال بقية الجوانب.

إذا فإذا كان مشروع النهضة بحسب الدكتور محمد عابد الجابري بمعنى الولادة الجديدة ومشروع تجديد وتحديث على وفق مستجدات ومتطلبات العصر الحاضر وليس اقتصارًا على مجرد النهوض بعد قعود فلا بد أن يكون منطلق هذا المشروع هو التراث ذاته من الانتظام فيه والانطلاق من داخله، شريطة ان يكون هذا الانتظام في التراث ليس انتظامًا برغماتيًا ظرفيًا وسطحيًا زاده شعارات براقة ومخاطبة الوجدان بل يجب ان يكون انتظامًا يبذل فيه الجهد والاجتهاد ليرتفع بوسائله ومقاصده ومراميه إلى مستوى متطلبات العصر ومستجداته وتحدياته وهذا بدوره يتطلب الارتفاع بمستوى التفكير إلى مستوى المرحلة التاريخية والتحرر من الطابع الظرفي للسياسة الذي وظف من قبل الأفغاني للتخلص من الاستعمار ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان محمد عبده ادرك هذا حيث عدل عن منهج جمال الدين الأفغاني من توظيف السياسة توظيفًا برجماتيًا ظرفيًا لمناهضة الغرب واتجه اتجاهًا إصلاحيًا محضًا كما سبق فيقول الدكتور محمد عابد الجابري واصفًا هذا الانتظام في التراث: "ولكن لا انتظامًا برغماتيًا ظرفيًا وسطحيًا، كل ما يحمله من زاد هو الشعارات ومخاطبة الوجدان، بل انتظام اجتهادي يرتفع بوسائله ومقاصده إلى مستوى العصر ومستجداته وتحدياته، وهذا يتطلب الارتفاع بالتفكير والعمل إلى مستوى المرحلة التاريخية والتحرر بالتالي من الطابع الظرفي للسياسة، وبعبارة أخرى، إن الإصلاح الديني أو التجديد الذي نص عليه الحديث النبوي القائل: (إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة دينها) (أو أمر دينها)، يجب أن لا يخضع للظرفية السياسية وحاجاتها المباشرة فيتحول إلى مجرد توظيف سياسي للدين والاكتفاء بالعموميات في بيان مقاصده ومكارمه، ولعل هذا ادركه الشيخ محمد عبده إذ عدل عن منهج جمال الدين الأفغاني واتجه اتجاهًا إصلاحيًا محضًا، ولكنه وقع هو الآخر في ما كان يجب عدم الوقوع فيه"[59].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن جمال الدين الأفغاني عندما التجأ إلى التوظيف السياسي للدين لمناهضة الغرب، وابتعاده بل واستبعاده لفكرة الإصلاح الديني تحت ضغط الظرفية السياسية ومعاناته الشخصية من الانكليز، إضافة إلى مزاجه الانفعالي الحاد قد جعلته ينظر إلى مخالفيه الرأي بأنهم خصوم للدين وأعداءً للإسلام وعملاء للغرب ولم يقتصر بالنظرة إليهم على أنهم خصوم سياسيون وحسب، ويرى الباحث أن ملاحظة الدكتور محمد عابد الجابري صائبة والتي تتضمن نقدًا لطريقة التعامل مع المخالفين للرأي باعتبارهم خصومًا للدين وأعداءً للإسلام وعملاء للغرب وليسوا مجرد مخالفين للرأي باعتبار الاختلاف سنة كونية وجدت لها تأصيلاً شافيًا في القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، يعتبر داءً عضالاً أصيبت به الأمة الإسلامية منذ زمن وتنطبق على كثير من الجماعات الإسلامية وبعض السطحيين والمتعالمين اليوم والذين ينظرون إلى كل من يخالفهم الرأي بل أو من لا يتطابق مع رؤيتهم في أي قضية حتى وإن كانت قضية اجتهادية فكرية يتجلى فيها الجهد البشري فهو خصيم مبين للدين وعدو للإسلام وعميل للغرب، فهم بهذا قد البسوا آراءهم الشخصية ووجهات نظرهم حول القضايا رداءً دينيا فصار المخالف لآرائهم والخصم الشخصي في نظرهم خصمًا دينيًا، بل خصمًا للإسلام ذاته، وقد شكلت هذه المنهجية في التعامل مع المخالفين في الرأي منعطفًا خطيرًا كانت له نتائجه الكارثية على الإسلام كدين يدين به عوالم كثيرة من البشر وعلى المجتمع الإسلامي بوجه خاص، بل شكلت متنفسًا ونافذةً يعبر من خلالها المتربصون بالإسلام ووصمه بعدم قبول الآخر والتعايش، وعودا على بدء يقول الدكتور

محمد عابد الجابري: "إن لجوء جمال الدين الأفغاني إلى التوظيف السياسي للدين لمناهضة الغرب، وابتعاده بل واستبعاده لفكرة الإصلاح الديني والثقافي والاجتماعي والسياسي مع ما يتطلبه ذلك من مرحلية وتدرج، إن رفضه لمثل هذا المنهج تحت ضغط الظرفية السياسية ومعاناته الشخصية من الانكليز، إضافة إلى مزاجه الانفعالي الحاد، كل ذلك قد جعله ينظر إلى من كانوا يخالفونه الرأي في طريقة مناهضة الغرب ووسائل تحقيق النهضة، لا بوصفهم خصومًا سياسيين وحسب، بل أيضًا – وهذا هو مكمن الخطأ – بوصفهم خصومًا للدين وأعداء للإسلام وعملاء للغرب"[60].

"وبالتالي لقد ألبس جمال الدين رأيه السياسي لبوسًا دينيًا وطابق بين السياسة والدين، فصار الخصم السياسي في نظره خصمًا دينيًا، لا بل خصمًا للإسلام نفسه وبالتالي لأمته، أمة الإسلام، وفضلاً عما في هذه التهم من شطط، فإن النتيجة السياسية هي فسح المجال لظهور الخلاف من جديد وانقسام الأمة فرقًا وأحزابًا، وبالتالي انشغال بعض الأمة ببعض بدل أن توجه كلها إلى الخصم الأساسي: المستعمر"[61]، فالأفغاني بحسب الدكتور محمد عابد الجابري قد البس رأيه لباسًا دينيًا فأصبح الخصم السياسي بنظره خصمًا دينيًا بل خصمًا للإسلام نفسه وكانت النتيجة السياسية أفسحت المجال لظهور الخلاف والانقسام في الأمة إلى فرقًا وأحزاب.

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن الأفغاني لم يتعامل مع مخالفيه اقتداءً بالرسول صلى الله عليه وسلم مع من خالفه باللطف والحسنى وتأليف القلوب بل بالاتهام السطحي الغير منصف فقال: "أن جمال الدين الأفغاني لم يطبق في مسلكه مع خصومه مبدأ الرجوع إلى الدين كما كان في بدايته، فهو لم يقتد بسيرة الرسول عليه السلام في أسلوب الدعوة وتكتيكها واستراتيجيتها، لقد كان هناك فعلاً من معاصري جمال الدين من كان موقفهم من الغرب موقف انبهار واستلاب، ولكنه لم يتعامل معهم على أساس ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل:125]، ولم يعتبر فيهم استراتيجيا التعامل مع ﴿۞إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٦٠﴾ [التوبة: 60]، خصوصًا وتأليف القلوب لم يكن يتطلب من جمال الدين لا مالاً يوزعه ولا غنيمة يقسمها وإنما فقط شيئًا من ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل:125]، بلى رماهم بتهم وجرحهم ووضعهم في موقع الخصم له، والحال أن مصلحة الأمة كانت تقتضي التغاضي عن كل ما يعمق الفرقة ويعرقل جمع الشمل"[62].

وبحسب الدكتور محمد عابد الجابري ان توظيف الأفغاني للدين من أجل السياسة أدى إلى ابتعاد مشروعه عن النهضة بمعنى الإصلاح والتجديد وحتى المنطق السياسي ذاته كان ضعيفًا لديه إن لم يكن منعدمًا فقد جند نفسه للنهوض بالأمة الإسلامية مشرقًا ومغربًا ضد الغرب المستعمر وضد المستبدين من حكامها والمهادنين للغرب ولم يكن لديه البديل المناسب لما بعد الثورة على المستعمر ومن هادنه من الحكام فانعدمت الرؤية المستقبلية لديه والبديل المناسب الذي سيحل محل الغرب المستعمر والحاكم المستبد ورفض الديموقراطية الغربية وبعض المفاهيم لكنه مع ذلك أيضا لم يوجد لها البديل المناسب من بيئتنا وهويتنا وخصوصيتنا وإنما كان يشخص الأمراض من دون إعطاء العلاج المناسب لكل مرض لذلك يقول الدكتور محمد عابد الجابري: "لقد وظف جمال الدين الأفغاني الدين من أجل السياسة كما بينا، مما ابتعد بمشروعه الاستنهاضي عن النهضة، بمعنى الإصلاح والتجديد، وانزلق به إلى منطق السياسة، ولكن المنطق السياسي عند جمال الدين كان

ضعيفًا إن لم نقل منعدمًا بالمرة: لقد جند جمال الدين نفسه لحمل أمم الشرق، أو أمة الإسلام في مشارق الأرض ومغاربها، على النهوض ضد الغرب المستعمر وضد حكامها الذين يهادنون الغرب أو يساومونه أو يتعاونون معه، ولكنه لم يكن يمتلك أي مشروع سياسي بديل، فماذا بعد النهوض والثورة؟ وما شكل الحكم الذي يجب إقامته؟ هل حكومة للعالم الإسلامي بأجمعه تحت الخلافة العثمانية أم حكومة إقليمية في كل قطر من الأقطار العربية الإسلامية ترتبط بغيرها من حكومات بلاد الإسلام بروابط ما؟ وما نوع هذه الروابط؟ وما هي الطريقة التي يجب اعتمادها في تنصيب الحكام... الخ؟ تلك أسئلة لا نجد لها جوابًا عند جمال الدين، ليس هذا وحسب، بل لقد رفض رفضًا صريحًا عنيدًا الديمقراطية الغربية ومجالسها النيابية بدعوى أن الشعوب الإسلامية متخلفة وأن الانتخاب على الطريقة الأوروبية لا يمكن أن يسفر إلا عن مجالس لا تمثل الأمة ولا أهدافها ولا مصالحها الحقيقية، وفي هذا المجال أيضًا لم يقدم أي بديل ولا مشروع بديل"[63].

ويخلص الدكتور محمد عابد الجابري بعد نقده الأفغاني ومنهجيته في التعبئة الدينية للإصلاح السياسي، ومنهجية محمد عبده في المهادنة السياسية في الإصلاح الديني والاجتماعي فالأول ثائر ذو طبيعة حادة يجعل من التوظيف البرغماتي للدين وقودًا للسياسة، والثاني محافظ واقعي يجعل من المهادنة السياسية وسيلة لعبور قافلة الإصلاح المجتمعي، لذلك فـ "إن المسألة ليست مجرد مسألة تكتيك أو استراتيجية بل هي مسألة مبدئية لم يتم الحسم فيها بعد في التجربة الحضارية العربية الإسلامية إنها: مسألة العلاقة بين الدين والسياسة"[64]، وليست وليدة اليوم بل هي فكرة عابرة للزمان "منذ الخلفاء الأربعة إلى اليوم"[65].

فيخلص إلى أنه لا يهدف من وراء الملاحظات على الأفغاني ورؤيته النهضوية إلى التقليل من أهمية الدور الكبير الذي قام به في حركة النهضة العربية الحديثة، ولا من فضله عليها وتضحياته من أجلها ولكن نحن بحاجة إلى استخلاص الدروس والعبر من هذه التجربة والحركة النضالية للأفغاني الصائبة والخاطئة، والدرس المهم الذي يفرض نفسه هو أن استراتيجية التوظيف السياسي للدين الذي سلكه الأفغاني هي ذاتها التي سلكها الزعماء السياسيون في الإسلام منذ ظهور الخلاف إلى اليوم سواءً المستبدين منهم ام المعارضين وهي ذاتها التي يمارسها ويتبناها ما يسمى بالإسلام السياسي والمتضمنة باستراتيجية توظيف الدين في السياسة والارتفاع بها إلى مستوى العقيدة، وهي وإن أفادت أحيانًا في التعبئة السريعة للعامة في ظروف الهياج والأزمة، فإنها غير فعالة على المدى الطويل، بل غالبًا تكون النتائج سلبية تمامًا، فالتعبئة تنقلب إلى احتراق ذاتي إذا لم يتبعها تفريغ ملائم وسريع في المكان الملائم، وذلك ما آلت إليه جهود جمال الدين التعبوية يقول الدكتور محمد عابد الجابري في ذلك: "فإننا لا نرمي من وراء الملاحظات السابقة إلى التقليل من أهمية الدور الكبير الذي قام به جمال الدين الأفغاني في حركة النهضة العربية الحديثة، ولا من فضله عليها وتضحياته من أجلها... ولكننا الآن، وقد دخل التاريخ من بابه الواسع، في حاجة إلى استخلاص الدروس من حركته ونضاله، من صوابه وأخطائه، والدرس الذي يفرض نفسه علينا، بعد النظر إلى الملاحظات السابقة من منظور تاريخي، هو أن استراتيجيا التوظيف السياسي للدين التي سلكها جمال الدين الأفغاني هي نفسها استراتيجيات التوظيف السياسي للدين التي سلكها الزعماء السياسيون في الإسلام منذ ظهور الخلاف سواءً منهم أولئك الذين كانوا يقبضون على دفة الحكم بكل جبروت واستبداد أو أولئك الذين ثاروا ضدهم وخرجوا عليهم مستنكرين معارضين... وهي نفسها الاستراتيجيات التي يتبناها ما يسمى اليوم بـ الإسلام السياسي، إنها استراتيجية توظيف الدين في السياسة والارتفاع بهذه الأخيرة إلى مستوى العقيدة، وهي استراتيجيًا إن أفادت

أحيانًا في التعبئة السريعة للعامة في ظروف الهياج والأزمة، فإنها غير ذات مفعول على المدى الطويل، بل كثيرًا ما تكون النتائج سلبية تمامًا، إن التعبئة تنقلب إلى احتراق ذاتي إذا لم يتبعها تفريغ ملائم وسريع في المكان الملائم، وذلك ما آلت إليه جهود جمال الدين التعبوية"[66].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان دعوة جمال الدين الأفغاني لم تحقق أهدافها كاملة فقد فشلت في جوانب ونجحت في جوانب أخرى وحصل في بعض الأحيان على العكس والنقيض مما كان يريده الأفغاني فـ" دعوة جمال الدين إذا كانت قد فشلت في تحقيق ما كانت تطمح إليه فقد نجحت – بمعنى ما من المعاني – في ما كانت ترفضه ولا تؤمن به"[67]:

– فعلى سبيل المثال كان الأفغاني يريد من الشرق الثورة في وجه الاستعمار الإنجليزي فحصل عكسها تمكن الاستعمار من ابتلاع معظم الدول العربية والإسلامية وأراد من الشعوب ان تثور في وجه حكامها المهادنين والمتعاونين مع الاستعمار الغربي فزادت سباتا وقعودا مما أدى إلى ازدياد طغيان واستبداد هؤلاء الحكام على شعوبهم "لم يثر الشرق في وجه الإنكليز ولا قامت شعوبه في وجه حكامها كما كان يريد، بل بالعكس، لقد تمكن الاستعمار الإنكليزي والفرنسي من البلدان العربية والإسلامية، وتمادى حكام هذه البلدان في طغيانهم واستبدادهم"[68].

– كذلك كان الأفغاني رافضا للتدرج في الإصلاح الديني والتعليم فحصل على العكس مما كان يريده فقد تكونت نخبة من العلماء والمثقفين عدلت عن منهجه السياسي واتجهت صوب ما كان يرفضه من التدرج في الإصلاح التدريجي في الدين والسياسة والثقافة وعلى رأس هؤلاء الإمام محمد عبده "لقد كان جمال الدين يرفض التدرج والبدء ينشر التعليم والسير في الإصلاح الديني بخطوات منشدة متمهلة، فنجحت دعوته في تكوين نخبة من العلماء والمثقفين عدلت عن منهج جمال الدين، السياسي/ الديني الثوري إلى منهج الإصلاح التدريجي في مجالات الدين والسياسة والثقافة، وكان على رأس هؤلاء وفي مقدمتهم جميعًا الشيخ محمد عبده"[69].

– وكذلك كان يرفض فصل الدين عن الدولة والسياسة وكان يرفض فكرة الوطنية والقومية وان رابطة الدين هي الرابطة الأقوى التي يجب على المسلمين والعرب التمسك بها وعلى الرغم من ذلك فقد حصل عكس ما كان يريده فقد مارس تلامذته والذين تخرجوا على يديه من زعماء سياسيين السياسة بعيد عن الدين مركزين على الوطنية والقومية في تعبئة الشعوب للتحرر والمقاومة وعلى رأس هؤلاء تلميذه سعد زغلول ومصطفى كامل وغيرهم "وكان جمال الدين يرفض فصل الدين عن السياسة مؤمنًا بأن أقرب طريق للتعبئة السياسية للأمة الإسلامية هو توظيف الدين فيها، وكان جمال الدين يرفض الوطنية والفكرة القومية مقررًا أن (جنسية المسلمين في دينهم) وأن (جامعة الدين) فيهم أقوى وأبلغ من أية رابطة أخرى، ومع ذلك فقد تخرج على يده، وفي إطار حركته ودعوته، زعماء سياسيون يمارسون السياسة بعيدًا عن الدين ويركزون على الوطنية والفكرة القومية في تعبئة الشعب للنهوض والمقاومة والتحرر، وكان من أبرز هؤلاء في مصر سعد زغلول ومصطفى كامل وآخرون"[70].

وقد تطرق الدكتور محمد عابد الجابري في معرض حديثه ونقده للأفغاني إلى ابرز تلامذته الشيخ عبده ونقده مبينا الإخفاقات التي حصلت له والإشادة بما قدم فيرى ان عبده كان ابرز شخصية خلفت الأفغاني في الدعوة إلى النهضة وكانت تجربته السياسية اقنعته ان طريق النهضة لا يأتي عن طريق السياسة وإنما يجب أن يبدأ بإصلاح تدريجي عام يشمل التعليم واللغة والعقيدة والسياسة، وقد سار في هذا الطريق بعد افتراقه مع أستاذه ولكنه بدل أن يتخلى عن مسلك أستاذه القائم على توظيف الدين في السياسة سار إلى النقيض من ذلك تمامًا فعمل على توظيف السياسة من أجل

الدين "كان محمد عبده أبرز شخصية خلفت الأفغاني في الدعوة إلى النهضة، غير أن تجربة محمد عبده السياسية، سواء قبل التحاقه بجمال الدين إلى باريس ليصدر معه من هناك مجلة العروة الوثقى أو أثناء تعاونه معه وملازمته له، قد جعلته – أعني تجربته السياسية – يقتنع، بسبب أنواع العثرات والفشل التي عانى منها، بأن طريق النهضة يجب أن يبدأ بإصلاح تدريجي عام يشمل التعليم واللغة والعقيدة والسياسة، وقد سار الشيخ محمد عبده في هذه السبيل، بعد افتراقه مع أستاذه جمال الدين، ولكنه بدل أن يقتصر على التخلي عن مسلك الأستاذ القائم على توظيف الدين في السياسة قفز إلى النقيض من ذلك تمامًا فعمل على توظيف السياسة من أجل الدين، والدين عنده هو الإصلاح"[71].

فتعامل عبده مع الإنجليز لا سيما منهم اللورد كرومر، الحاكم الإنجليزي في مصر آنذاك بقصد التمكين من اجل تمرير مشروع الإصلاح ليشمل المؤسسات التعليمية في مصر كالأزهر فـ" لم يتردد محمد عبده في التعامل مع اللورد كرومر، الحاكم الإنكليزي في مصر، آملاً أن يمكنه ذلك من التسرب بالإصلاح إلى بعض مراكز النفوذ التي تمكنه من العمل من موقع السلطة والقوة، كمشيخة الأزهر ووظيفة القضاء... الخ، لقد كان يعتقد أن الإنكليز لن يقفوا في وجه الإصلاح الديني والمؤسسات الدينية ما دام ذلك لا يمس مركزهم السياسي"[72].

ومن هنا وجد الشيخ عبده نفسه على العكس مما كان يأمل من مهادنته السياسية وسيره على طريق الإصلاح والتعاون مع الحكام من اجل تمرير مشروعه الإصلاحي ليفسحوا الطريق لذلك لكن كانت النتيجة على العكس مما توقع وتأمل فقد وقف المجتمع ضده متهما إياه بالتعاون مع العدو الغازي ووقف الأزهر ضده لأنه من وجهة نظرهم كان يريد مشروعه الإصلاحي له واعتبروه تهديدا خطيرا للكيان الفكري والمادي للمنتسبين إليه "وهكذا وجد الشيخ عبده نفسه في وضعية هي على النقيض تمامًا مما كان يأمل وينتظر من موقفه السياسي الواقعي، لقد كان يأمل أن تمكنه الواقعية السياسية القائمة على المهادنة والتعاون مع الحاكمين، حتى ولو كانوا محتلين أجانب أو طغاة مستبدين، من فتح الأبواب أمامه ليمارس في جسم المجتمع الإصلاح الذي كان يريده له، غير أن النتيجة كانت على العكس من ذلك تمامًا: لقد تسبب له موقفه ذاك في وقوف المجتمع بمكوناته الثلاثة الرئيسية ضده.

قد وقف الوطنيون ضده لأنه تعاون مع عدوهم وعدو مصر: الإنكليز ووقف الأزهريون ضده لأنهم رأوا في دعوته إلى إصلاح الأزهر مسًا خطيرًا بكيانهم الفكري والمادي"[73].

فمن باب المنهجية الموضوعية التي كان يسير عليها الدكتور محمد عابد الجابري يتساءل "هل نحتاج إلى التأكيد هنا، مرة أخرى، أننا لا نرمي من وراء إبراز هذه الجوانب السلبية في مسلك محمد عبده لا التقليل من أهمية دعوته ولا من دورها الكبير في مجال الإصلاح والتجديد على مستوى العقيدة والسلوك الدينيين؟"[74]، فعند إيراده للسلبيات في مسلك عبده ليس القصد منها التقليل من أهمية دعوته او دورها والذي يصفه الدكتور محمد عابد الجابري بالكبير في مجال الإصلاح والتجديد على مستوى العقيدة والسلوك.

ويشيد الدكتور محمد عابد الجابري بالدور الذي قام به الشيخ محمد عبده في مشروع الإصلاحي وإخلاصه وإيمانه بقضيته وموقفه وصبره في تحمل الأعباء من اجله وتأثيره على شريحة كبيرة من دعاة التجديد الذين جاءوا بعده كل هذه إيجابيات محسوبة له بقوله: "إن دور محمد عبده في هذا المجال، وإخلاصه في دعوته، وإيمانه بصواب موقفه، وصبره واستماتته في سبيل ذلك، وتأثيره الطيب في كثير من دعاة الإصلاح والتجديد من بعده ... كل ذلك يرفع الجوانب الإيجابية في ما ندب نفسه من أجله درجات ودرجات على تلك الجوانب السلبية، هذا إذا قسنا الأمور بالمقياس الذي يوزن به عمل الشخص كشخص"[75].

وبحسب الدكتور محمد عابد الجابري لقد كان عبده يمثل وجهة نظر متميزة في مشروع النهضة التي تفرعت إلى منهجين متمايزين ومتناقضين هما تيار الإسلامي السياسي الذي كان يعبر عنه الافغاني وممثله الاول في العصر الحديث وتيار السلفية المستنيرة التي يعبر عنها الشيخ محمد عبده وكان رائدها والداعي إليها "ولكن محمد عبده لم يكن مجرد شخص، بل كان أكثر من ذلك كثيرًا، كان يعبر عن وجهة نظر متميزة في مشروع النهضة العربية الحديثة، وجهة نظر أسسها مع الأفغاني لتتفرع عنهما إلى منهجين متمايزين ومتباينين، بل ومتناقضين على مستوى طريقة العمل: تيار (الإسلام السياسي) الذي كان الأفغاني ممثله الأول في العصر الحديث، وتيار السلفية التي كان الشيخ محمد عبده رائدها وداعيتها"[76].

وبنظرة الدكتور محمد عابد الجابري العميقة للواقع والتراث يرى ان هذين التيارين يكرران موقفين عرفهما التاريخ الإسلامي منذ سن مبكرة فعبرا الزمان وتبنتهما حركات وشخصيات على مدى العصور الإسلامية كل بواقع عصره وبيئة بلده فيقول في ذلك: "والتياران، كلاهما، يكرران موقفين عرفهما تاريخ الإسلام منذ النزاع بين علي ومعاوية، موقفين تبنتهما خلال العصور الإسلامية حركات وشخصيات كل بلغة عصره وحسب ظروف بلده: موقف يوظف التعبئة الدينية في الإصلاح السياسي، وموقف يوظف المهادنة السياسية في الإصلاح الديني والاجتماعي، الأول ثوري خارجي يجعل من الشعور الديني وقودًا للسياسة، والثاني محافظ واقعي واقعية ليس في الإمكان أبدع مما كان، يجعل من المهادنة السياسية وسيلة لـ تمرير الإصلاح"[77].

فيرى الدكتور محمد عابد الجابري أن تكرر الموقفين وعبورهما العصور الماضية بنفس الوقع والطريقة والاسلوب وبتكررهما في عصرنا الحاضر فالمسألة مسألة مبدئية لم يتم الحسم فيها بعد منذ زمن إلى اليوم وهي مسألة العلاقة بين الدين والسياسة، "وإذا كان هذان الموقفان قد تكررا معًا طوال العصور الماضية من التاريخ العربي، ويتكرران في عصرنا الحاضر، فلأن المسألة ليست مجرد مسألة تكتيك أو استراتيجيا بل هي مسألة مبدئية لم يتم الحسم فيها بعد، في التجربة الحضارية العربية الإسلامية: مسألة العلاقة بين الدين والسياسة، وستكون لنا عودة إلى هذه القضية الأساس"[78].

المطلب الثاني: تلقي المغرب العربي الأفكار الوافدة من المشرق مجردة من الخلافات:

ويذكر الدكتور محمد عابد الجابري في معرض حديثه عن انتقال دعوة الافغاني وعبده إلى المغرب العربي أن المغرب كان يتلقى الأفكار الوافدة إليه من المشرق العربي مجردة عن الخلافات التي كانت تحصل في المشرق فما إن تستوطن الافكار المشرقية في المغرب العربي حتى تنزع عنها اللباس الخلافي المشرقي لتوظف مع ظروف المغرب الخاصة منزوعة الخلاف وظاهرة بصورة جديدة ويرى الباحث ان الدكتور محمد عابد الجابري قد يبالغ نوعا ما في هذه المسألة ونظرته إلى المشرق وهذه النظرة لا تقتصر على الوقت الراهن بل ممتدة الجذور إلى الماضي ممثلة بنظرته إلى الفلسفة المشرقية والمغربية فالأولى كانت عرفانية والثانية برهانية فيتفق الباحث مع الدكتور محمد عابد الجابري ولكن يختلف معه في قضية المبالغة والمدح الزائد لبلاد المغرب قديما وحديثا وإظهاره للمشرق العربي بأنه منبت الخلاف في الافكار في الثقافة الإسلامية وأنّ المغرب هو العقلاني على الرغم من اشتراك المشرق والمغرب في سبب التخلف والركود وعدم النهوض بتمايز المغرب العربي بالنظرة العميقة والمقاصدية من قبل أعلامه ومفكريه فيقول الدكتور محمد عابد الجابري في ذلك: "أن المغرب، كان دائمًا، يتلقى الأفكار الجديدة والتيارات الايديولوجية، من المشرق، ولكن ما إن يستوطن الوافد من الأفكار والدعوات في الأرض المغربية حتى تنزع

عنها لباسها الخلافي المشرقي لتتكيف مع ظروف المغرب وحاجاته الخاصة فتظهر في صورة جديدة تمامًا"[79].

فبحسب الدكتور محمد عابد الجابري ان "التيارات الفكرية النهضوية، السلفية منها والليبرالية والقومية، التي تعزف المغاربة على آرائها وأطروحاتها عبر المجلات والجرائد والأسفار والاتصالات المباشرة كانت تؤخذ دائمًا من وجهها الإيجابي الوطني النهضوي التحرري، أما الوجه الآخر الذي يعكس الخصومات السياسية والايديولوجية فلم يكن يعني المغاربة في شيء، بل لربما لم يكونوا يدركون من أمره شيئًا ذا بال، وهكذا كانت آراء محمد عبده تقرأ في المغرب جنبًا إلى جنب مع آراء الزعماء الوطنيين والدعاة النهضويين في مصر وسورية والعراق أمثال سعد زغلول ومصطفى كامل ولطفي السيد وسلامة موسى... الخ كان هؤلاء يقرأون لا كمعبرين عن تيارات فكرية متباينة أو أحزاب سياسية متخاصمة، بل فقط كمبشرين بالنهضة والإصلاح والتقدم والتحرر، الشيء الذي يجعل هذه الأفكار تعيش علاقات جديدة في المغرب[80]، علاقات سلمية، بل علاقات تزاوج واندماج"[81].

فالجوانب السلبية التي يراها الدكتور محمد عابد الجابري في دعوة الأفغاني وعبده قد بقيت في المشرق ولم تنتقل مع الدعوة السلفية النهضوية إلى المغرب، والمتمثلة في " مسلكية الأفغاني وعبده من توظيف برغماتي للدين لصالح السياسة على طريقة جمال الدين، ومن اللجوء إلى المهادنة السياسية أملاً في إزالة العوائق أمام الدعوة على طريقة محمد عبده، أو من تشكيك في الحريات الديمقراطية وجدوى الحياة النيابية أو التحفظ والحذر من اقتباس افكار الحداثة الأوروبية، أو من الدخول في تناقض وصراع مع الحركات الوطنية والليبرالية... الخ، كل هذه الجوانب السلبية التي أبرزناها في دعوة عبده والأفغاني، ...، قد بقيت في المشرق ولم تنتقل مع الدعوة السلفية النهضوية إلى المغرب "[82].

بل على النقيض من ذلك فأفكار عبده الإصلاحية قد اندمجت في المغرب مع افكار زعماء الوطنية ودعاة التجديد والتحديث المشرقيين من شتى البلدان في حركة فكرية سياسية لبست ثوب الخصوصية المغربية وظروفه وحاجاتها فتولدت من رحمها السلفية الوطنية أو السلفية الجديدة "بل بالعكس، إن أفكار محمد عبده الإصلاحية في مجال العقيدة والسلوك الديني والتربية والتعليم قد اندمجت هنا في المغرب مع أفكار زعماء الوطنية ودعاة التجديد والتحديث المصريين والسوريين واللبنانيين وغيرهم – اندمجت في حركة فكرية سياسية واحدة تقمصت خصوصية وضعية المغرب وظروفه وحاجاته وتطلعاته فأنتجت ما عبر عنه أحد رجالها وزعمائها الأسناد المرحوم علال الفاسي بـ (السلفية الوطنية) تارة وبـ (السلفية الجديدة) تارة أخرى، وسنترك له الكلمة ليشر لنا بنفسه ذلك اللباس الجديد الذي ارتدته سلفية عبده في المغرب، والذي كان هو نفسه – أعني علال القاسي – من أبرز ناسجيه"[83].

وبحسب الدكتور محمد عابد الجابري ان الفضل في عدم معاناة المغرب اليوم مما تعاني منه دول عربية أخرى من تمزق داخلي وصراع دموي وتيه ايديولوجي وطائفي وعشائري يعود إلى رواد السلفية الوطنية الجديدة، المغربية، التي أرسى دعائمها الشيخ أبو شعيب الدكالي وبالخصوص شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي أستاذ علال الفاسي ويرى انها برنامج للعمل وأفق للتفكير في المستقبل أيضًا، ليس في المغرب وحسب بل وفي مجموع أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي "إذا كان المغرب اليوم لا يعاني مما تعاني منه أقطار عربية أخرى من تمزق داخلي وصراع دموي وتيه ايديولوجي وطائفي وعشائري، فإن كثيرًا من الفضل في ذلك يرجع إلى السلفية الوطنية الجديدة، المغربية، التي أرسى دعائمها الشيخ أبو شعيب الدكالي وبالخصوص شيخ الإسلام محمد بلعربي العلوي أستاذ علال الفاسي الذي حمل لواءها بكل اقتدار وجدارة، لقد كانت هذه السلفية

الوطنية الجديدة في المغرب برنامجًا للعمل وأفقًا للتفكير خلال العشرينات والثلاثينات والأربعينات وإلى منتصف الخمسينات عند حصول المغرب على استقلاله، ونحن لا نتردد في القول إنها تصلح أن تكون برنامجًا للعمل وأفقًا للتفكير في المستقبل أيضًا، ليس في المغرب وحسب بل وفي مجموع أنحاء الوطن العربي والعالم الإسلامي"[84].

يتضح مما سبق أنه على الرغم من انتقاد توجه الأفغاني وعبده من قبل الدكتور محمد عابد الجابري إلا انه يشيد بالدور الذي قدماه في النهوض والوقوف في وجه الاستعمار فيقول: " تلك قضية جمال الدين الأفغاني داعية الشرق إلى النهوض والوقوف في وجه الاستعمار الإنكليزي وهي قضية نبيلة بدون شك، تحمل معها معقوليتها ومشروعيتها، فهي من هذه الناحية ليست موضوعًا لا للمراجعة ولا للنقد"[85].

فيقول: "ولا يغرب عنا، أن السلفية الحديثة نجحت في تحرير الفكر الديني من التقليد، وفتح باب الاجتهاد، وإعادة الاعتبار للعقل، وتحقيق نوع من الإخاء بين العلم والإيمان، وأسهمت في تطوير اللغة العربية، وتحريرها من أساليب عصور الانحطاط...، ولكن الدعوة السلفية لم تنجح في حل المعادلة التي استعصمت منذ آواخر خلافة عثمان التي طرفاها: ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب من جهة، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة من جهة أخرى"[86].

ويخلص إلى أنه لا يهدف من وراء الملاحظات على الأفغاني ورؤيته النهضوية إلى التقليل من أهمية الدور الكبير الذي قام به في حركة النهضة العربية الحديثة، ولا من فضله عليها وتضحياته من أجلها ولكن نحن بحاجة إلى استخلاص الدروس والعبر من هذه التجربة والحركة النضالية للأفغاني الصائبة والخاطئة.

ووجه الدكتور محمد عابد الجابري سهام نقده إلى تيار الإحياء والتجديد بتعريفهم لمفهوم التجديد وانه يعني الرجوع إلى سيرة السلف الصالح، ويسميهم بالسلفية الحديثة وانها لم تحقق نجاحًا في المجال السياسي وبالتالي المجال الاقتصادي والاجتماعي، لقد كان النجاح حليفهم في الدين واللغة.

ولأنه يرى ان ما يحتاج إليه المسلمون اليوم هو التجديد بعقلانية ووعي وليس مجرد الصحوة فقط "والحق أن ما يحتاج إليه المسلمون اليوم هو التجديد وليس مجرد الصحوة، إن التحديات التي تواجه العالم العربي والعالم الإسلامي تتطلب ليس فقط رد الفعل بل الفعل، والفعل في العصر الحاضر هو أولاً وأخيرًا فعل العقل... لأن العصر يقوم كل شيء فيه على الفعل العقلاني"[87].

وانتقد الدكتور محمد عابد الجابري تعامل الافغاني مع الخطاب النهضوي بأنه خطاب علاجي يتبنى لغة الطبيب في تشخيصه للمرض في البحث عن اسباب المرض وتحديده والبحث عن علاج لكنه اختار دواءً واحدا معينا ورفض الباقي وعاب عليه ربطه الدين بالسياسة ربطا برغماتيا والذي بدوره أدى إلى تحول السياسة إلى عقيدة.

ويرى أن الخطاب الذي استعمله والذي بدوره ليس خطاب إثبات وحسب بل خطاب جدل وسجال، ظل يهيمن على الفكر السلفي الحديث، وبقي يتردد كما هو إلى اليوم، ومضمونه رفض أسس الحداثة الاوروبية واتهام دعاة الأخذ بها بالغفلة والعمالة بل والخيانة، وما يقدمه كبديل عن هذا الخطاب ينحصر في مجرد الدعوة إلى الأخذ بالإسلام كما كان عليه في أول أمره.

بحيث يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن "مشروع للنهضة بمعنى الولادة الجديدة، مشروع للتجديد والتحديث داخل الإسلام وتحت رايته وفق ما تقتضيه متطلبات العصر وتحدياته الحضارية العامة، إن النهضة بمعنى الولادة الجديدة، وليس فقط بمعنى النهوض بعد قعود، لا بد أن تنطلق من الانتظام في التراث"[88].

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري في دعوة الأفغاني وعبده أنها عملت على "مسلكية... توظيف برغماتي للدين لصالح السياسة على طريقة الأفغاني ومن اللجوء إلى المهادنة السياسية أملا في إزالة العوائق أمام الدعوة على طريقة محمد عبده"[89].

وانه بتوظيف الأفغاني للدين من اجل السياسة أدى إلى ابتعاد مشروعه عن النهضة بمعنى الإصلاح والتجديد وأن الأفغاني عندما التجأ إلى التوظيف السياسي للدين لمناهضة الغرب، وابتعاده بل واستبعاده لفكرة الإصلاح الديني تحت ضغط الظرفية السياسية ومعاناته الشخصية من الإنكليز، إضافة إلى مزاجه الانفعالي الحاد قد جعلته ينظر إلى مخالفيه الرأي بأنهم خصوم للدين وأعداء للإسلام وعملاء للغرب ولم يقتصر بالنظرة إليهم على أنهم خصوم سياسيون وحسب، ويرى الدكتور محمد عابد الجابري أن الأفغاني لم يتعامل مع مخالفيه اقتداء بالرسول صلى الله عليه وسلم مع من خالفه باللطف والحسنى وتأليف القلوب بل بالاتهام السطحي الغير المنصف.

وأن هذه الاستراتيجية في التوظيف السياسي للدين الذي سلكه الأفغاني هي ذاتها التي سلكها الزعماء السياسيون في الإسلام منذ ظهور الخلاف إلى اليوم سواء المستبدين منهم ام المعارضين وهي ذاتها التي يمارسها ويتبناها ما يسمى بالإسلام السياسي والمتضمنة باستراتيجية توظيف الدين في السياسة والارتفاع بها إلى مستوى العقيدة.

ويخلص الدكتور محمد عابد الجابري بعد نقده الأفغاني ومنهجيته في التعبئة الدينية للإصلاح السياسي، ومنهجية محمد عبده في المهادنة السياسية في الإصلاح الديني والاجتماعي من أن الأول ثائر ذو طبيعة حادة يجعل من التوظيف البرغماتي للدين وقودًا للسياسة، والثاني محافظ واقعي يجعل من المهادنة السياسية وسيلة لعبور قافلة الإصلاح المجتمعي.

ويرى الدكتور محمد عابد الجابري ان دعوة جمال الدين الأفغاني لم تحقق أهدافها كاملة فقد فشلت في جوانب ونجحت في جوانب أخرى وحصل في بعض الأحيان على العكس والنقيض مما كان يريده الأفغاني.

الخاتمة واهم النتائج:

لعل أهم ما نختم به بحثنا هذا هو تقديم عصارة لأهم الأفكار التي تضمنها البحث، فالقارئ لمشروع الدكتور محمد عابد الجابري سيلاحظ أنه اتخذ طريقا مختلفا لفهم الحداثة وتعريف مفهومها وذلك باتباعه منهجية مختلفة تنطلق من العقلانية والنقد، وقد خلص هذا البحث إلى جملة من النتائج يمكن إجمالها على النحو الآتي:

- أن التعريف الذي قدمه الدكتور محمد عابد الجابري للحداثة بأنها لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي قد قرر أن الحداثة عنده لا تتطابق مع التعريف الغربي لها الذي يعني القطيعة مع التراث وتجاوز الماضي فالدكتور محمد عابد الجابري بتعريفه للحداثة يقرر أنها ليست قطيعة مع التراث بقدر ماهي الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى المعاصرة.
- الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري ليست ثورة تتجه صوب الجديد وإلغاء القديم عنوانها العقل القاطع للصلة بينه وبين الماضي آخذا طريقه نحو التحديث في شتى مجالات الحياة، أو حركة فكرية حديثة وشاملة تمثل رؤية جديدة للعالم، كما هي في تعريفها الاوروبي بل الحداثة عنده تنطلق من داخل التراث ولا تعني رفضه ولا القطيعة معه ومع الماضي بقدر ما تعني الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى ما يسمى بالمعاصرة.
- الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري لا تقوم على القطيعة المعرفية مع التراث والماضي بل تقوم على الارتفاع بطريقة التعامل معه إلى مستوى المعاصرة وتقوم أيضا على القطيعة مع التقليد للحداثة الغربية وتستقي جذورها من

روح التراث، وتعتبر مطلبًا ضروريًا ومصيريًا بالنسبة للنهضة والوجود العربي والإسلامي.

- الحداثة عند الدكتور محمد عابد الجابري تنطلق من داخل التراث وروحه، فالحداثة لا يمكن عزلها عن التراث لأنها تنطلق منه ويقترح الدكتور محمد عابد الجابري أن نفهم التراث فهما حداثيا على وفق رؤية عصرية بدل الفهم التراثي للتراث.

- الحداثة لدى الدكتور محمد عابد الجابري لا تعني رفض التراث ولا القطيعة مع الماضي بل تعني الارتفاع في طريقة التعامل مع التراث المعاصر أي مواكبة التقدم العالمي، ويريد الدكتور محمد عابد الجابري وفق المنهجية التي يقترحها البعد عن الفهم التراثي للتراث، فالنقد والوعي والعقلنة في قراءة التراث العربي والإسلامي توصل إلى الحداثة.

- يرى الدكتور محمد عابد الجابري ان هناك مفاهيم أخرى تتقاطع ومفهوم الحداثة من مثل مفهوم النهضة والتجديد.

- انتقد الدكتور محمد عابد الجابري تيار الإحياء والتجديد ورواده بتعريفهم لمفهوم التجديد من انه يعني الرجوع إلى سيرة السلف الصالح، ويسميهم بالسلفية الحديثة وانها لم تحقق نجاحًا في المجال السياسي وبالتالي المجال الاقتصادي والاجتماعي، لقد كان النجاح حليفهم في الدين واللغة.

- يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن الخطاب الذي استعمله الأفغاني والذي بدوره ليس خطاب إثبات وحسب بل خطاب جدل وسجال، ظل يهيمن على الفكر السلفي الحديث، وبقي يتردد كما هو إلى اليوم، ومضمونه رفض أسس الحداثة الأوروبية واتهام دعاة الأخذ بها بالغفلة والعمالة بل والخيانة، وما يقدمه كبديل عن هذا الخطاب ينحصر في مجرد الدعوة إلى الأخذ بالإسلام كما كان عليه في أول أمره، ولم ينزل إلى الواقع ليفقهه وينزل عليه المفاهيم التي بإمكانها ان تخرج الأمة من الأزمة التي تعانيها مع المحافظة على الهوية والخصوصية.

- يرى الدكتور محمد عابد الجابري أن دعوة الأفغاني وعبده عملت على "مسلكية... توظيف برغماتي للدين لصالح السياسة على طريقة الأفغاني ومن اللجوء إلى المهادنة السياسية أملا في إزالة العوائق أمام الدعوة على طريقة محمد عبده"[(90)]، وان دعوة الأفغاني لم تحقق أهدافها كاملة فقد فشلت في جوانب ونجحت في جوانب أخرى وحصل في بعض الأحيان على العكس والنقيض مما كان يريده الأفغاني، وكذلك محمد عبده.

- انه وعلى الرغم من نقد الدكتور محمد عابد الجابري لتيار الإحياء والتجديد ورواده يشيد بالدور الذي قدمه في النهوض والوقوف في وجه الاستعمار ويرى أن السلفية الحديثة نجحت في تحرير الفكر الديني من التقليد، وفتح باب الاجتهاد، وإعادة الاعتبار للعقل، وتحقيق نوع من الإخاء بين العلم والإيمان، وأسهمت في تطوير اللغة العربية، وتحريرها من أساليب عصور الانحطاط.

التوصيات:

لقد أسهمت كتابات الدكتور محمد عابد الجابري في تقديم قراءات وإجابات جديدة لإشكالية مفهوم الحداثة، كمحاولة منه لتجاوز الأزمة الحضارية والثقافية واللحاق بركب الحضارة والتقدم، فرهان التقدم والتنمية يلزم دراسة معمقة للتراث العربي الإسلامي للدخول في مشروع نهضوي حديث وكل هذا يحتاج إلى بلورة خطاب إسلامي معاصر يقدم مقاربات جديدة تستجيب لمتطلبات العصر ومجاوزة الخمول والسبات والتقليد الأعمى، واتباع النقد والاقتباس النافع من الثقافات الأخرى، فالفهم الشمولي للثقافة العربية والانفتاح المنهجي على الثقافات الأخرى أمر لا مفر منه لضبط إيقاع العصر دون مساس بالقيم والقواعد الإسلامية والدين الحنيف، وبالتالي فقد توصل الباحث من خلال بحثه إلى توصيات مهمة، جاءت على النحو الآتي:

1. يوصي الباحث بضرورة عمل دراسات تتناول الإشكاليات التي طرأت على الفكر الإسلامي المعاصر وقراءتها بعمق ومحاولة تأصيلها وإزالة الخلاف الذي يعتريها.

2. يحث الباحث على ضرورة البحث والدراسة في أعمال الدكتور محمد عابد الجابري كونها تمثل إسهامًا فكريًا ضخمًا يحمل في طياته هم النهوض والتحديث والانطلاق من داخل التراث.

3. ينوه الباحث بأنّ على الباحثين والدارسين في حقل الفكر الإسلامي والعربي مواصلة المسير في الطريق الذي شقه الدكتور محمد عابد الجابري باتباعه للمنهج النقدي والقراءة العميقة التي تبرز تصحيح مسار الإشكاليات التي تعتري الفكر الإسلامي والعربي المعاصر.

4. الإشادة بدور الدكتور محمد عابد الجابري وإبراز مشروعه الفكري الذي خلفه للاستفادة منه والسير على خطاه الفكرية ونظرته الثاقبة في مقاربته للقضايا والإشكاليات والاستفادة من الحضارات الأخرى مع المحافظة على الهوية والخصوصية من دون الذوبان في أفكارها والتنكر لتراثنا العريق.

الهوامش:

(1) محمد عابد الجابري: ولد في (27 ديسمبر 1935م بفكيك، الجهة الشرقية – 3 مايو 2010م في الدار البيضاء)، مفكر وفيلسوف عربي من المغرب، له 30 مؤلفاً في قضايا الفكر المعاصر، أبرزها "نقد العقل العربي" الذي تمت ترجمته إلى عدة لغات أوربية وشرقية، كرمته اليونسكو لكونه "أحد أكبر المتخصصين في ابن رشد، إضافة إلى تميزه بطريقة خاصة في الحوار.

(2) الجابري: اشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص 38.

(3) عصر التدوين عند الجابري هو انطلاق الثقافة العربية والإسلامية يرى أن معالم العقل العربي تشكلت في عصر التدوين الذي ازدهر في ظل الدولة العباسية وشهد نشاطا معرفيا واسعا تم خلاله وضع تفاسير للقران وجمع الأحاديث وتأسيس علم النحو وقواعد الفقه وانتعاش علم الكلام وحركة الترجمة. ويصنف الجابري مختلف العلوم والأنشطة الفكرية التي شهدها عصر التدوين في ثلاثة حقول هي : البيان وأطلق عليه اسم المعقول الديني، أما الحقل الثاني فهو العرفان وسماه اللامعقول العقلي، والحقل الثالث هو البرهان وسماه المعقول العقلي، ينظر: ، الجابري : تكوين العقل العربي، ص63 ،62، والجابري، بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة الثقافة العربية، ط9 ، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009 م)، ص13، 251، 383.

(4) عبد الإله بلقزيز: العرب والحداثة في مقالات الحداثيّين، ص310.

(5) إدريس هاني: التراث والحداثة واستمرارية السؤال الإشكالي في الفكر العربي المعاصر، ص6.

(6) الجابري: التّراث والحداثة، ص48.

(7) الجابري: إشكاليات الفكر العربي المعاصر، ص15.

(8) الجابري: تكوين العقل العربي، ص7، 8.

(9) ينظر: كمال عبداللطيف وحسن بحراوي: محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة، ص39.

(10) الجابري: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، ص16.

(11) الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، نقلا عن: إدريس جبري: سؤال الحداثة في الخطاب الفلسفي لمحمد عابد الجابري، ص50، 51.

(12) الجابري: التراث والحداثة، ص277.

(13) المصدر السابق، ص15، 16.

(14) المصدر السابق، ص15، 16.

(15) المصدر السابق، ص18.

(16) المصدر السابق، ص18.

(17) المصدر السابق، ص15، 16.

(18) ينظر: المصدر السابق، ص17.

(19) الجابري: المصدر السابق، ص17.

(20) الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ص 73.

(21) ينظر: المصدر السابق، ص73.

(22) الجابري: التراث والحداثة، ص17.

(23) المصدر السابق، ص17.

(24) الجابري: تكوين العقل العربي، ص48.

(25) الجابري: التراث والحداثة، ص.60

(26) حوار أجراه المفكر عبد الإله بلقزيز مع الدكتور محمد عابد الجابري في مجلة (المستقبل العربي).

(27) الجابري: التراث والحداثة، ص16.

(28) الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، السلسلة الثقافية القومية، ص133.

(29) الجابري: التراث والحداثة، ص 24

(30) الجابري: المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، ص126.

(31) ينظر: المصدر السابق، ص129.

(32) ينظر: الجابري، العقل الأخلاقي العربي، ص249، وينظر: الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص130.

(33) ينظر: الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص132.

(34) أخرجه أبو داود في كتاب الملاحم برقم 3740 والحاكم في المستدرك، 5224/، والبيهقي في معرفة السُّنن والآثار، ص 52، والخطيب في تاريخ بغداد 61/2، وصحَّحه الألباني في سلسلته برقم 599، 150/2

(35) الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ص40، 41، وانظر: الجابري: التراث والحداثة، ص10، 11.
(36) الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ص40.
(37) الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص128.
(38) ينظر: المصدر السابق، ص 130، 131.
(39) المصدر السابق، ص131.
(40) ينظر: المصدر السابق، ص131.
(41) ينظر: المصدر السابق، ص87.
(42) المصدر السابق، ص 67.
(43) المصدر السابق، ص 67.
(44) المصدر السابق، ص 67.
(45) الجابري: نحن والتراث، ص12.
(46) ينظر: المصدر السابق، ص13.
(47) الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص81.
(48) ينظر: المصدر السابق، ص 70.
(49) المصدر السابق، ص 70.
(50) المصدر السابق، ص 71.
(51) المصدر السابق، ص 71.
(52) محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، ص30،.
(53) المصدر السابق، ص35.
(54) ينظر: المصدر السابق، ص36.
(55) ينظر: المصدر السابق، ص 36، 38.
(56) الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص 72.
(57) المصدر السابق، ص 73.
(58) المصدر السابق، ص 73.
(59) المصدر السابق، ص 73.
(60) المصدر السابق، ص 73.
(61) المصدر السابق، ص 73.
(62) المصدر السابق، ص 73.
(63) المصدر السابق، ص74، 75.
(64) المصدر السابق، ص 76.
(65) المصدر السابق، ص 88.
(66) المصدر السابق، ص 75.
(67) المصدر السابق، ص 76.
(68) المصدر السابق، ص 76.
(69) المصدر السابق، ص 76.
(70) المصدر السابق، ص 76.
(71) المصدر السابق، ص 76.
(72) المصدر السابق، ص 77.
(73) المصدر السابق، ص 78.
(74) المصدر السابق، ص 79.
(75) المصدر السابق، ص 79.
(76) المصدر السابق، ص 79.
(77) المصدر السابق، ص 79.
(78) المصدر السابق، ص 79.
(79) المصدر السابق، ص 80.
(80) ينظر: المصدر السابق، ص 80.
(81) المصدر السابق، ص 80.
(82) المصدر السابق، ص 81.
(83) المصدر السابق، ص 81.
(84) المصدر السابق، ص83، 84.
(85) المصدر السابق، ص 71.
(86) المصدر السابق، ص128.
(87) الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ص40.
(88) الجابري: المشروع النهضوي العربي مراجعة نقدية، ص 73.
(89) المصدر السابق، ص81.
(90) المصدر السابق، ص81.

المصادر والمراجع:

1. إدريس هاني: التراث والحداثة واستمرارية السؤال الإشكالي في الفكر العربي المعاصر: (مجلة الكلمة، المجلد 13، العدد 4930 سبتمبر/ أيلول 2005)، على العنوان التالي: www.kalema.net.
2. حوار أجراه المفكر عبد الإله بلقزيز مع الدكتور محمد عابد الجابري في مجلة (المستقبل العربي) العدد (278)ابريل 2002م.
3. عبد الإله بلقزيز: العرب والحداثة في مقالات الحداثيّين، ط1، (لبنان، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 2007م).
4. محمد عابد الجابري: اشكاليات الفكر العربي المعاصر، ط3، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1990م).
5. محمد عابد الجابري: التراث والحداثة، دراسات ومناقشات، ط1، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، 1991م).
6. محمد عابد الجابري: المشروع النهضوي العربي، مراجعة نقدية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط1 ديسمبر 1996، ط2 يونيو، 2000م).
7. محمد عابد الجابري: بنية العقل العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة الثقافة العربية، ط9 ، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 2009 م).
8. محمد عابد الجابري: تكوين العقل العربي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 1991م).

9. محمد عابد الجابري: نحن والتراث، قراءات معاصرة في تراثنا الفلسفي، ط6، (الدار البيضاء، المغرب/ بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي، 1993م).
10. محمد عابد الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ط2، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994م)، نقلا عن: ادريس جبري: سؤال الحداثة في الخطاب الفلسفي لمحمد عابد الجابري، ط1، (دار البيضاء: فالية للطباعة والنشر، 2013م).
11. محمد عابد الجابري: وجهة نظر نحو إعادة بناء قضايا الفكر العربي المعاصر، ط2، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1994م).
12. محمد عابد الجابري، الدين والدولة وتطبيق الشريعة، السلسلة الثقافية القومية، ط1، (بيروت، لبنان: مركز دراسات الوحدة العربية، 1996م)، ص133.
13. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي: دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية، (نقد العقل العربي)، ط1، (الدار البيضاء: دار النشر المغربية، 2001م).
14. محمد عمارة: أزمة العقل العربي: مناظرة بين فؤاد زكريا ومحمد عمارة، ط1، (الدوحة، 22ربيع ثان 1413هـ، 19 أكتوبر1992م، نهضة مصر، 2003م).
15. محمد عمارة: جمال الدين الأفغاني بين حقائق التاريخ وأكاذيب لويس عوض، ط1، (القاهرة: دار السلام، 1430هـ/2009م).
16. ينظر: كمال عبداللطيف وحسن بحراوي: محمد عابد الجابري المواءمة بين التراث والحداثة، إعداد وتقديم: كمال عبداللطيف، ط1، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، تموز/ يوليو 2016م).